التناسب بين معاني "الله نور السموات والأرض" ورؤية إبراهيم عليه السلام للكواكب في سورة الأنعام– دراسة وتحليل

the consistence between the meanings of "Allah is the light of heaven and earth" and Abraham's seeing the planets in Q 6 - study and analysis

د. ندين مصطفى السليمي*

جامعة الملك عبد العزيز– جدة– السعودية

nalsulaimi@kau.edu.sa

ت تاريخ الاستلام: 2024/01/01 تاريخ القبول 2024/06/06 تاريخ النشر 2024/06/22

ملخص:

دراسة موضوع النور والظلمات في سورتي الأنعام والنور يبيّن الارتباط بين معاني آية النور والمثل فيها وقصة إبراهيم في الأنعام. وتعتمد الدراسة على أن الآيات القرآنية تفسر بعضها البعض، وأن الرابط الجوهري بين السورتين رغم اختلاف السياقين هو موضوع النور وأدلة التوحيد، وأن الأمثال في السورتين جاءت لبيان الإيمان والكفر عبر استخدام النور والظلمات. وتخلص الدراسة إلى أن معاني نور الله المذكورة تتناسب مع مغزى قصة إبراهيم رغم أن سورة النور جاءت بالأحكام للهداية وتنظيم المجتمع فالله أبان نوره للناس عبر الآيات القرآنية والمشاهدة، في حين أن قصة إبراهيم بينت نور الإيمان في قلبه حين رأى الآيات المنيرة وظهر نقصها.

* المؤلف المراسل

الكلمات المفتاحية: آية النور؛ النور والظلمات؛ أمثال القرآن؛ رؤية إبراهيم للكواكب؛ سورة الأنعام؛ سورة النور؛ الله نور السموات والأرض

Abstract:
Studying the light and darkness in Q 6 and Q 24 shows the link between the meanings of 24:35, its parable, and Abraham's story in Q 6. The study depends on that the Quran interprets itself, the main connection between both surahs is light and monotheism although the contexts differ, and their parables demonstrate belief and disbelief by using light and darkness. It concludes that the meanings of 24:35 consist with Abraham's story although the laws in Q 24 is for guidance and organizing society because Allah shows His Light through Quranic and seen signs while Abraham's story shows the light of faith in Abraham's heart when he saw the planets.

key words: Verse of light; Light and Darkness; Quranic Parables; Abraham seening the planets; surah al-Anaam; surah al-Nur

مقدّمة:

درج الوعاظ وأصحاب الكلام وأهل العلم والتفسير وغيرهم على الحديث عن آية "ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ"، وذكر المفسرون عدة أقوال في معنى النور ومعنى المثَل المذكور فيها، وتناول عدد منهم بيان موضوع سورة النور الرئيس، فذكر القرطبي أن السورة تبين أحكام العفة وآداب الستر،[1] فيما أخبر البقاعي أن مقصود السورة هو تأكيد العلم الإلهي التام والقدرة والحكمة الربانية خلف ما حدث في المدينة من حادث الإفك بغرض بيان شرف بيت النبوة وطهارته،[2] وبيّن المراغي أن السورة التي بدأت بالأحكام والشرائع لا تنتهي بدون ذكر الأدلة على التوحيد والقدرة الإلهية، والغرض من ذلك هو تعريف الإنسان بعلم الله بالأفعال ومحاسبته عليها لتصلح حياة الأفراد والمجتمعات ويسود النظام والاطمئنان.[3] وتناولت عدة أبحاث العلاقة بين آية النور وبين الفرائض والحدود الواردة في السورة لردع الفاحشة وحماية الأعراض والمجتمع،[4] وذكرت الدراسات أن السورة جاءت بأحكام لحفظ العرض وتهذيب النفوس بأساليب مختلفة كضرب المثل والقصة

والوعد والوعيد وتزويد المجتمع بالحدود والآداب،[5] وبينت أن حفظ العرض من الأمور التي اقترنتْ بعدم الإشراك بالله ودعوة غيره كما جاء في سورة الفرقان (الآية ٦٨).[6]

وفي مناسبة اتصال جملة "ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ" بالآية قبلها (٣٤)،[7] يذكر المراغي أن السورة وضحت الآيات البينات لهداية الناس في شؤون حياتهم وأخلاقهم، ثم ذكرت أن الله نور السموات والأرض بما جعل فيهما من آيات الكون وآيات الوحي التي تدل على وجوده وقدرته وعلمه فجاءت السورة بالهداية في الدارين.[8] ويقول ابن عاشور أن الآية (٣٤) جاء فيها عظيم منة الله بهداية الناس بشكل عام عبر دينه ورسوله، ثم بعدها في آية النور جاءت الهداية الخاصة والمنة الإلهية والإخبار بالعلم الشامل والقوة المطلقة والعظمة المتناهية، ويتابع ابن عاشور أن جملة "مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشۡكَوٰةٖ" هي دلالة على الآيات المبينات وكون القرآن نورًا، ويضيف بأن جملة "ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ" تجمع معاني النور بالعموم.[9] ويظهر مما سبق تركيز السورة على بيان قدرة الله وعلمه وقوته، وإظهار الأدلة البينة على ذلك سواء الأدلة الكونية أو آيات القرآن في سياق يذكر أحوال المنافقين مع النبي ﷺ وأهل بيته الأطهار.

وقيل إن موسى عليه السلام حين رأى النار في الوادي المقدس فهو قد رأى نور الحجاب الذي احتجب الله به عن خلقه،[10] والنبي محمد ﷺ رأى نور الله في المعراج،[11] وإبراهيم عليه السلام قبلهما أُرِي "ملكوت السموات والأرض"[12] كما جاء في سورة الأنعام (الآية ٧٥)؛ لذلك هذه الدراسة تبحث في العلاقة بين معاني النور والآيات المبينات في سورة النور وبين رؤية إبراهيم عليه السلام للنيرات في سورة الأنعام المكية،[13] كما تدرس وجه العلاقة بين الحجة التي احتج بها إبراهيم لبيان التوحيد والشرك في سورة الأنعام، وبين المثَل الذي ضربه الله للنور في سورة النور؛ خاصة وأن سورة الأنعام تذكر مثلين للإيمان والكفر، وموضوعها الرئيس يتناول التوحيد وبيان كمال الله وقدرته على الخلق والبعث،[14] وهو موضوع لا يختلف عما لاحظه عدد من المفسرين من مجيء

موضوع التوحيد وأدلته في وسط سورة النور كما جاء أعلاه، ووقوع السورة بين سورتين مكيتين هما: المؤمنون والفرقان ومعالجتهما لموضوعات التوحيد والخَلق والوحي والنبوة بشكل أساسي. وقد أوضح أمين أحسن إصلاحي أن سورة النور ملحَقة بسورة المؤمنين المكية ومكملة لما جاء في فاتحتها من الحديث عن المؤمنين وصفاتهم وقد كانت تلك الصفات تطبيقات فردية في مكة، ثم تأتي سورة النور وتبين هذه التطبيقات في الحياة الواقعية عندما نشأ المجتمع المسلم في المدينة، بحيث اتسع نور الإيمان من الأفراد إلى المجتمع، وجاءت الأحكام للحفاظ على المجتمع وانعكاسًا لهذا الإيمان ومستلزماته.[15] والجدير بالملاحظة أن سورتي الأنعام والنور قد اشتملتا على موضوعي التوحيد والأحكام والأمثال وإن اختلفت الأساليب والأوامر وزمان النزول وطول السورتين، ويبدو أن عددًا من المفسرين عند تفسير آية النور قد ذكر آيات مختلفة من سورة الأنعام ومنها فاتحتها.[16] وتركز الدراسة على قراءة المثل في آية النور مع قصة إبراهيم عليه السلام في سورة الأنعام؛ عبر تطبيق القاعدة التفسيرية الشهيرة: تفسير القرآن بالقرآن، وهذه المنهجية ذكرها عبد الحميد الفراهي حيث قال أن الأمثال في القرآن تُفهم من خلال هذه القاعدة لتفادي الوقوع في الضلال والفهم الخاطئ للأمثال المطلوب فهمها وتدبرها.[17]

وتعتمد هذه الدراسة على المنهج الاستنباطي والتحليلي، وقد تم تقسيم البحث كالتالي:

- المبحث الأول: "النور والظلمات" في سورتي الأنعام والنور
- المبحث الثاني: رؤية إبراهيم للكواكب لإثبات التوحيد في سورة الأنعام والتناسب مع وسط سورة النور

ثم خاتمة وفيها أبرز النتائج.

المبحث الأول "النور والظلمات" في سورتي الأنعام والنور

.....

يتناول المبحث عرضًا مختصرًا للسياق الذي جاء فيه مصطلح النور والظلمات في السورتين، والمعاني المنقولة حول آية النور، ثم الأمثال المضروبة للإيمان والكفر في سورة النور وارتباطها بالنور والظلمات في السورتين، وما ينتج عن ذلك من بيان صفات الربوبية وعرض الأدلة عليها.

المطلب الأول: النور والظلمات في السورتين:

يركز هذا المطلب على تتبع لفظي النور والظلمات في سياق سورتي الأنعام والنور، يليه تسليط الضوء على معاني آية النور كما في كتب التفاسير، وإيجاد الروابط مع سورة الأنعام.

الفرع الأول: النور والظلمات في سياق السورتين

"النور" مصطلح يتكرر في القرآن الكريم، وقد جاء وصفًا للقرآن في سورتي النساء المدنية (الآية ١٧٤) والأعراف المكية (الآية ١٥٧) وغيرهما، ويأتي مفهوم الخروج من الظلمات إلى النور في سور عديدة، مثل: البقرة المدنية (الآية ٢٥٧) والمائدة المدنية (الآية ١٦) وإبراهيم المكية (الآية ١)، والأحزاب المدنية (الآية ٤٣).[18] وجاء لفظ "النور" في فاتحة سورة الأنعام التي بدأت بحمد الله خالق السموات والأرض وجاعل الظلمات والنور، ولكن الكافرين عدلوا عن الله وساووه بخلقه، وتُبين السورة أن الكافرين مُعرضون عن كل آية جاءت من ربهم (الآية ٤)، فتضرب مثَل الذين كذبوا بالآيات بأنهم كالصم والبكم في الظلمات من شدة ضلالهم عن الصراط المستقيم (الآية ٣٩)، وأن الله عنده مفاتح الغيب ويعلم كل ما في هذا الكون حتى الحبة في ظلمات الأرض (الآية ٥٩)، وتتابع السورة بأن الله ينجّيهم من ظلمات البر والبحر حين يدعونه تضرعًا وخفية (الآية ٦٣)، ثم تصف سورة الأنعام كتاب موسى عليه السلام بأنه نور وهدى (الآية ٩١)، وتعلن أن الله فالق الإصباح (الآية ٩٦) ومسخر النجوم للاهتداء في ظلمات البر والبحر (الآية ٩٧)، ثم تضرب السورة مثَلَ الميت الذي جعل اللهُ له نورًا يمشي به في

الناس ومثل مَن هو في الظلمات ليس بخارج منها (الآية ١٢٢)، وفي وسط هذا السياق وبين مثَلي الكفر (الآيات ٣٩ و ١٢٢) تقع قصة إبراهيم عليه السلام- التي هي محل هذه الدراسة- مع أبيه وقومه ورؤيته للكواكب وأفولها وبراءته من الشرك، ثم الأمر للنبي ﷺ بالاقتداء بمَن هدى الله (الآية ٩٠)، وتعود السورة لذكر دلائل الربوبية كالخلق والرزق وتنهى عن اتباع خطوات الشيطان (الآية ١٤١-١٤٢)، لتنتهي السورة بهداية النبي ﷺ إلى صراط إبراهيم عليه السلام الحنيف (الآيات ١٦١-١٦٣)، وكما جعل الظلمات والنور في أول السورة جعل في ختامها الناس خلائف الأرض ليبلوهم فيما آتاهم من النعم (الآية ١٦٥).

هذا بالنسبة للفظ النور في سياق سورة الأنعام، أما سورة النور المليئة بالأحكام والآداب فيأتي لفظ النور/نور في وسطها سبع مرات (الآيات ٣٥-٤٥)، ويمكن تقسيم السورة إلى ثلاثة أقسام حسب الموضوعات: القسم الأول يبدأ بالحديث عن نزول سورة والآيات البينات وحادث الإفك وأحكام العفة وغيرها، ويحذر من اتباع خطوات الشيطان (الآية ٢١)، وينتهي بذكر الآيات البينات ومعها مَثَل وموعظة للمتقين (الآيات ١-٣٤)، والقسم الأخير (الآيات ٤٦-٦٤) يبدأ بما بدأت به السورة من ذكر الآيات البينات التي نزلت وأن الله يهدي مَن يشاء إلى صراط مستقيم، ويذكر المنافقين وعدم اهتدائهم بالآيات كما فعل الكافرون الذين هم في الظلمات في وسط السورة، ويتحدث عن المؤمنين الموعودين بالاستخلاف في الأرض، وفيه عودة إلى ذكر أحكام العفة ثم التحذير من الانصراف عن مجلس النبي ﷺ وعدم الاستجابة لدعوته كما يفعل المنافقون، لتنتهي السورة بملك الله للسموات والأرض وعلمه الشامل المحيط. ويفتتح القسم الوسط بنور وصفات الله ومثل نوره في قلب المؤمن، كما يبين القِسم مَثل أعمال الكافرين وكونهم في الظلمات وخسارتهم لنور الله (الآية ٤٠)، ويحتوي القسم على دلائل التوحيد عبر ملك الله للسموات والأرض والظواهر الكونية كالبحر والسحاب والليل والنهار و"سنا"

البرق وخلق الله للدواب ولما يشاء (الآيات ٣٥-٤٥)، وهي كلها دلائل على قدرة الله وعظمته ووحدانيته.

من المثير كذلك مجيء لفظي "دابة" و"طائر/طير" في السورتين ، وهذان اللفظان سيقا للإشارة إلى الآيات الكونية، وقد يبدو لا وجود لرابط بين لفظ "الأنعام" وسورة النور، خاصة وأن سورة الأنعام تبطل دعاوى المشركين في آلهتهم وتقديمهم الأنعام لها وتسوق عددًا من الأحكام المتعلقة بالأنعام،[19] لكن تأكيد خلق الله للسموات والأرض وجعله الظلمات والنور في أول الأنعام يوضح معنى الربوبية في بقية آيات السورة التي تذكر قدرة الله في خلق الدواب والطيور وعالمها (آية أخرى على الربوبية) والحشر إليه كما سيحشر الناس في سياق يتحدث عن طلب المشركين للآيات وتكذيبهم بالوحي والرسالة وضرب المثل بالظلمات لبيان حالهم من الكفر بالآيات: "وَقَالُواْ لَوۡلَا نُزِّلَ عَلَيۡهِ ءَايَةٞ مِّن رَّبِّهِۦۚ قُلۡ إِنَّ ٱللَّهَ قَادِرٌ عَلَىٰٓ أَن يُنَزِّلَ ءَايَةٗ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ - وَمَا مِن دَآبَّةٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا طَٰٓئِرٖ يَطِيرُ بِجَنَاحَيۡهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمۡثَالُكُمۚ مَّا فَرَّطۡنَا فِي ٱلۡكِتَٰبِ مِن شَيۡءٖۚ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمۡ يُحۡشَرُونَ - وَٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا صُمّٞ وَبُكۡمٞ فِي ٱلظُّلُمَٰتِۗ مَن يَشَإِ ٱللَّهُ يُضۡلِلۡهُ وَمَن يَشَأۡ يَجۡعَلۡهُ عَلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ" [الأنعام: ٣٧-٣٩]، ومعنى الربوبية كالملك والقدرة والخلق يظهر كذلك عند الحديث عن الطير الصافات وخلق الدابة في سورة النور في سياق يذكر أمثال الإيمان والكفر ودلائل الوحدانية والآيات البينات وهداية الله للصراط المستقيم والعودة إليه: "أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَٱلطَّيۡرُ صَٰٓفَّٰتٖۖ كُلّٞ قَدۡ عَلِمَ صَلَاتَهُۥ وَتَسۡبِيحَهُۥۗ وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِمَا يَفۡعَلُونَ- وَلِلَّهِ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلۡمَصِيرُ" [النور: ٤١-٤٢]، "وَٱللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَآبَّةٖ مِّن مَّآءٖۖ فَمِنۡهُم مَّن يَمۡشِي عَلَىٰ بَطۡنِهِۦۖ وَمِنۡهُم مَّن يَمۡشِي عَلَىٰ رِجۡلَيۡنِ وَمِنۡهُم مَّن يَمۡشِي عَلَىٰٓ أَرۡبَعٖۚ يَخۡلُقُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ- لَّقَدۡ أَنزَلۡنَآ ءَايَٰتٖ مُّبَيِّنَٰتٖۚ وَٱللَّهُ يَهۡدِي مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ" [النور: ٤٥-٤٦].

ذكر هذه الظواهر والمخلوقات في سورة النور يقود إلى الربط بينها وبين قصة إبراهيم عليه السلام في سورة الأنعام كما سيأتي، خاصة مع افتتاح الأنعام بذكر المخلوقات والأضداد (الظلمات والنور): "ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورۖ " [الأنعام: ١]. استخدام لفظ "جَعَلَ" مع الظلمات والنور وليس "خَلَقَ" رغم تقارب اللفظين في المعنى يوحي بكون النور مضافًا إلى الشيء،[20] وهذه اللفتة جديرة بالتحليل في ضوء آية النور ومصدر النور الأصلي لكل ما في الكون، ويضاف إلى ذلك أن ختام الآية التي تذكر مَثل أصحاب الشبهات والشكوك يجيء فيها الفعل نفسه: "وَمَن لَّمۡ يَجۡعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورٗا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ" [النور: ٤٠]، الفعل كذلك يأتي الفعل في سورة الأنعام عند ضرب المثل للإيمان والكفر بالنور والظلمات: "وَٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا صُمّٞ وَبُكۡمٞ فِي ٱلظُّلُمَٰتِۗ مَن يَشَإِ ٱللَّهُ يُضۡلِلۡهُ وَمَن يَشَأۡ يَجۡعَلۡهُ عَلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ" [الأنعام: ٣٩]، "أَوَمَن كَانَ مَيۡتٗا فَأَحۡيَيۡنَٰهُ وَجَعَلۡنَا لَهُۥ نُورٗا يَمۡشِي بِهِۦ فِي ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ لَيۡسَ بِخَارِجٖ مِّنۡهَاۚ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلۡكَٰفِرِينَ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ" [الأنعام: ١٢٢]،[21] ويأتي الفعل في سياق الحديث عن جعل الله صدور الكافرين لا تتسع لأن تقبل بالإسلام ويجعل الرجس فيها بسبب كفرهم وصدهم:[22] "فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهۡدِيَهُۥ يَشۡرَحۡ صَدۡرَهُۥ لِلۡإِسۡلَٰمِۖ وَمَن يُرِدۡ أَن يُضِلَّهُۥ يَجۡعَلۡ صَدۡرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجٗا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي ٱلسَّمَآءِۚ كَذَٰلِكَ يَجۡعَلُ ٱللَّهُ ٱلرِّجۡسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ" [الأنعام: ١٢٥]، وهذه الآية كما يقول ابن عاشور تتصل عبر التفريع مع الآية (١٢٢) لبيان أن سبب الهداية الحقيقي هو الله تعالى لذلك مهما تجيء الكافرين من آيات فهم لا يؤمنون بدون هداية الله،[23] والهداية هي أحد المعاني المنقولة كما سيأتي في معاني النور في قوله تعالى: "ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ".

الفرع الثاني: معاني جملة "ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ":

نقل المفسرون عدة أقوال في معنى جملة "ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ" كالآتي:

1 - نُقل عن ابن عباس قولان: الأول: "الله هادي أهل السموات والأرض"، الثاني وقال به مجاهد كذلك: "يدبر الأمر فيهما، نجومهما وشمسهما وقمرهما". ونُقل عن أنس بن مالك قوله: " إن إلهي يقول: نوري هُداي".[24]

2 - أي ضياء السموات والأرض، ونُقل عن أُبيّ بن كعب أن الله تعالى بدأ بنوره، ثم نور المؤمن.[25] وقال أبيّ والحسن وأبو العالية: "مزين السموات بالشمس والقمر والنجوم، ومزين الأرض بالأنبياء والعلماء والمؤمنين"،[26] وقال ابن عرفة: "منور السموات والأرض"،[27] وقال السدي: "فبنوره أضاءت السموات والأرض".[28]

3 - عن ابن مسعود قال: "ليس عند ربكم ليل ولا نهار، نور السماوات والأرض من نور وجهه".[29]

وقد اختار الطبري القول الأول لابن عباس؛ وعلله بأنه مسبوق بذكر نزول الآيات البينات التي تهدي إلى الحق وتبين دين الله لأنه هادي أهل السماء والأرض،[30] وذهب الرازي إلى هذا القول أيضًا،[31] وذكر ابن عطية أن المعنى متعلق ببيان قدرة الله في إنارة السموات والأرض واستقامة حالهما وصنعهما، وهذا الرأي عند ابن عطية كما يقول أشمل من قول ابن عباس الأول.[32] أما ابن القيم فقد رجح قول ابن مسعود، وأعرب عن عدم وجود أي تعارض مع القول الثاني، وزاد بأن هذا النور يعطيه الله للإنسان ويمكن إضافته إليه لأن للنور "محل وحامل ومادة" كما جاء في الآية، وذكر أن المعنى المختار لا يتعارض مع معنى "منور السموات والأرض"، فالآية تُشير إلى نوره تعالى في الكون والقلب، أي "النور المعقول المشهود بالبصائر والقلوب، والنور المحسوس المشهود بالأبصار".[33] وأشار

القرطبي إلى أن نور الله لا يُدرك بالأبصار، وهو مصدر الأشياء ومانحها النور.[34] وبيّن البقاعي أن هذا النور على ظهوره وقوته هو خفي؛ لذلك عبّر تعالى بالضمير "**مَثَلُ نُورِهِۦ**" لأن كثيرًا من الناس في الظلام، وأضاف بأن النور متعلق بتمام القدرة والتنزيه عن النقائص.[35] وهذا القول شبيه لما ذهب إليه ابن عطية.

وذكر السعدي كلامًا مشابهًا لما ذكره ابن القيم فقال أنه النور الحسي والمعنوي، وأنه تعالى نور بذاته وحجابه النور وبه استنارت الأشياء كالشمس والقمر والنور والجنة، وهو مصدر النور المعنوي كالإيمان والشرع والكتب وحتى معرفة الأنبياء لربهم بقلوبهم، ولولا نور الله "لتراكمت الظلمات".[36] وقال ابن عاشور قولاً قريبًا، وعنده أن المعنى الأحسن للجملة هو أن الله أوجد كل ما يُطلق عليه النور من مصادر المعارف والحجج الصحيحة والإرشاد إلى العمل الصالح الذي يقود إلى المآل الحسن في كل العوالم العلوية والسفلية.[37] هذا من ناحية فهم جملة "**ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ**"، ومع تعدد المعاني فإن عدم إدراك نور الله لا يختلف عليه المفسرون، وهذا ما تؤكده سورة الأنعام (الآية ١٠٣)، أما الدلائل المختلفة (الحسية والمعنوية) على وجوده تعالى ومعرفته والهداية إليه متاحة للبشرية مما يُوجد رابطًا بين المعاني في السورتين، وتحديدًا قصة إبراهيم عليه السلام كما سيأتي. وفي معنى "**مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشۡكَوٰةٖ فِيهَا مِصۡبَاحٌۖ**" فإن كثيرًا من المفسرين ربطوه بنور المؤمن، وذكر بعضهم أن المشكاة والمصباح هي مثلٌ لقلب النبي ﷺ،[38] وذهب الطبري إلى أن المثل متعلق بنور القرآن في صدور المؤمنين التي استنارت بآياته وحكمته.[39] وهنا يظهر رابط آخر بين السورتين، فالنور في قلوب المؤمنين يوقد ويتجدد إيقاده من شجرة مباركة، فصاروا رجالاً في بيوت الله يقيمون الصلاة ويخافون يوم تقلب القلوب والأبصار، كما أُنزل القرآن في سورة الأنعام كتابًا مباركًا للذين يؤمنون بالآخرة وعلى صلاتهم يحافظون (الآيات ٩٢، ١٥٥). أيضًا مَثَل سورة الأنعام (الآية ١٢٢) يوضح رابطًا جديدًا مع مَثَل آية النور، فالإنسان –في مَثَل سورة الأنعام– بعد

الاهتداء إلى الإيمان صار حيًا بعد الموت، ومُنح النور لهدايته في شؤون حياته، فصار يمشي بنور القرآن لما حصل له من العلم والهداية بإذن الله واتضحت له أدلة العقل والوحي،[40] وبالتالي يكون مَثَل المؤمن في السورتين أنه أُعطي النور/القرآن فاهتدى بإذن الله وأطاع في بيوت الله وبين الناس.

لقد تجلى النور في كل أجزاء سورة النور رغم تكرر اللفظ في وسطها فقط، وكان هذا التجلي ابتداء في "سورة" نزلت من عند الله لهداية المجتمع وتنويره، وتجلى النور في آياتها البينات والمبينات والبلاغ المبين (الآية ٥٤) فكلها نور أيضًا لمن تذكر واتقى وسار على صراط مستقيم وأطاع الله والرسول ﷺ، النور أيضًا كان في الأحكام والآداب والحدود المفروضة، وفي براءة أم المؤمنين رضي الله عنها فظهرت الحقيقة كالشمس لكل المجتمع وبقيت عبر التاريخ ظاهرة واضحة لا تخفى. وكان النور حول المنافقين في كل مكان، ولكنهم لم يهتدوا بالنور وأظهروا عكسه، ورضوا بظلمات بعضها فوق بعض، وكانت الآيات البينات –كما يقول ابن عاشور– إيضاحًا وفضحًا لإعراضهم وخبايا نفوسهم المليئة بالظلمات.[41] لقد تجلى النور من قلب السورة عبر الدلائل على عظمة الربوبية والقدرة المطلقة، والحجج والأمثال المذكورة، وفي قلوب الرجال المسبحين، وتسبيح الكون والطير الصافات، والودق النازل من السماء وسنا البرق، وتقليب الليل والنهار، وسط السورة كان محور النور كله "ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ" ومنه انتشر في كل الكون "نُّورٌ عَلَىٰ نُورٖ"، نور الله والقرآن والآيات المعنوية والحسية، والله يهدي إليه من يشاء.

المطلب الثاني: الأمثال في سورة النور وعلاقتها بأحوال الكفار في الأنعام

يوضح هذا المطلب أمثال النور والظلمات (الإيمان والكفر) في سورة النور، وإمكانية ربطها بسياق سورة الأنعام التي تفصل أحوال الكافرين المعرضين عن الآيات

القرآنية والكونية الدالة على الربوبية، ثم يبين المطلب ما تذكره آية النور من صفة العلم وتناسب ذلك مع سياق سورة الأنعام.

الفرع الأول: أمثال النور والظلمات في النور وأحوال الكافرين في الأنعام

يجدر الوقوف على ما ذكره ابن القيم والفراهي حول الأمثال في سورة النور، فينقل ابن القيم أن السورة فيها ثلاثة أمثال: مثل "أهل النور" (الآية ٣٥)، ومثل "أصحاب السراب" (الآية ٣٩)، ومثل "أهل الظلمات المتراكمة" (الآية ٤٠)،[42] ويضيف بأن الله خلق الخَلق في ظلمة كما جاء في الحديث،[43] وأن الحياة الحقيقية للروح تكون في الاهتداء بالوحي الذي هو روح ونور منه، فمن لم يهتد بهذا النور فهو في الظلمات لا نور له.[44] أما الفراهي فيستخدم الآيات في سورة النور نفسها لفهم المثل، ويربط المثل بعمل المؤمن في مقابل عمل الكافر في الآية (٤٠)، مِثل التباين والمقابلة ما بين النور والظلام والإيمان والكفر، وأن هداية الله لنوره هي الهداية للإيمان كما يكثر هذا المعنى في القرآن، ويشرح الفراهي أن السورة فيها ثلاثة أمثال –كما ذكر ابن القيم– تبدأ من جملة "**مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشْكَوٰةٍ**"، ومكان المشبه به هو بيوت الله (المساجد) المذكورة في الآية (٣٦)،[45] والمصباح إشارة إلى مصابيح المساجد التي يأتيها المؤمنون المسبحون الممتلئة قلوبهم بالنور، ويضيف الفراهي بأن المصباح والمشكاة ومكانه في بيوت الله ومَن فيها من الرجال وصفاتهم من الإقبال على الآخرة والعبادة هي إشارات لكل الأنوار الظاهرة والباطنة،[46] فكان المؤمنون على صراط مستقيم يتوافق علمهم وعملهم لأن إيمانهم أصل أعمالهم على عكس الكافرين حين ضرب مثلهم حيث بدأ بأعمالهم؛ لأنهم أفسدوا فطرهم بالكفر واتبعوا الشهوات،[47] ويبين الفراهي أن القرآن قد ذكر في مواضع كثيرة مَثل الفريقين (فريق النور وفريق الظلمة)، ويستشهد بعدد من الآيات[48] منها آية الأنعام التي ذكرت مثل الكافر الماشي في الظلمات الذي من ضلاله وظلمة أعماله وانغماسه في ظلام الكفر ومحبته لذلك لا يود الخروج منه،[49] أما الإيمان فيكون نتيجة حصول العلم

والذي به يحدث صلاح العمل، وبيان الغاية من الوجود للمؤمن فهو كالماشي في النور.[50] ويشير الفراهي إلى أن المقصود بجملة "ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ" هو ضرب المثل "لنوره تعالى لا لنفسه"،[51] ومصدر النور وما يستضيء به هو مصدر واحد، أما أنواعه فكثيرة فالله جعل القمر نورًا، وكذلك الظلمات مصدرها واحد وهو الكفر وتكون الظلمات أنواعًا.[52] ويمضي الفراهي مبينًا أن العقل "نور إلهي"[53] لمن لم تفسد فطرته واهتدى عقله بالوحي، واستشهد بالحجة العقلية التي ذكرها إبراهيم عليه السلام لقومه في سورة الأنبياء (الآية ٥٦ عن الربوبية وخلق السموات والأرض).[54]

الذي ذكره الفراهي في فهم الآية يفتح للمتدبرين الطريق لربط المثل بالأنوار الأخرى (الحسية والمعنوية) التي جعلها الله للاهتداء بإذنه، كما يُخرج الباحثين من عناء الجدال حول نور الله ذاته وعدم تشبيهه، ويقدم تفسيرًا للأقوال التي ذكرها المفسرون في معنى المثل وربطه بالقرآن والمؤمنين، كما أن ما طرحه الفراهي يتناسب مع سياق الآيات في السورة والحديث عن الآيات البينات ومن ثم أعمال الكافرين ومخلوقات الله في الكون لبيان ربوبيته وعظمته، ويمكن توسيع السياق من سورة النور إلى سورة الأنعام كذلك، وإلى الحجة التي احتج بها إبراهيم حين رأي الكواكب المنيرة لتحقيق ما ذكره الفراهي من تفسير المثل بالقرآن نفسه. ومما يؤكد ما ذهب إليه الفراهي من ارتباط آية النور بالهداية والحجج العقلية أن الحديث عن تقليب القلوب والأبصار يوم القيامة وتقليب الليل والنهار في الدنيا ليكون عبرة لأولي العقول يأتي مباشرة بعد آية النور: "رِجَالٞ لَّا تُلۡهِيهِمۡ تِجَٰرَةٞ وَلَا بَيۡعٌ عَن ذِكۡرِ ٱللَّهِ وَإِقَامِ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءِ ٱلزَّكَوٰةِ يَخَافُونَ يَوۡمٗا تَتَقَلَّبُ فِيهِ ٱلۡقُلُوبُ وَٱلۡأَبۡصَٰرُ" [النور: ٣٧]، "يُقَلِّبُ ٱللَّهُ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبۡرَةٗ لِّأُوْلِي ٱلۡأَبۡصَٰرِ" [النور: ٤٤]. وقد تنبه ابن عاشور لتشابه التقليب في الآية (٣٧) في النور وآية الأنعام: "وَنُقَلِّبُ أَفۡـِٔدَتَهُمۡ وَأَبۡصَٰرَهُمۡ كَمَا لَمۡ يُؤۡمِنُواْ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٖ وَنَذَرُهُمۡ فِي طُغۡيَٰنِهِمۡ يَعۡمَهُونَ" [الأنعام: ١١٠]، وذكر ابن عاشور

في آية الأنعام أن قلوب المشركين وعقولهم قد تعطلت عن إدراك الهداية في القرآن فلا يرون دلائله ولا آياته، كما لو جاءتهم الآيات التي يطلبونها فإنهم لن يؤمنوا بها مثل عدم إيمانهم بالقرآن لأن فطرتهم مقلوبة لا تبصر الآيات العقلية ولا غيرها.[55] ومن هذه الآيات مشاهدتهم قدرة الله في تقليب الليل والنهار وما فيه من الانتقال من حال الظلمة إلى النور وبالعكس (النور: ٤٤) ولكنهم لا يؤمنون. ويذكر ابن عاشور أن مناسبة الآية (٤٤) في النور لما قبلها من آيات كونية هو الإتيان بالأدلة المنظورة والتي يراها كل أحد وفيها من العبرة الظاهرة لكل مَن يُبصر.[56]

وعندما نرجع إلى سياق سورة النور نجدها بعد أن ساقت الأدلة الكونية على التوحيد وذكرت كيف كان فريق الكافرين في الظلمات رغم مجيء الآيات، تعود السورة للحديث عن فئة المنافقين وكفرهم وارتياب قلوبهم وتوليهم رغم قولهم بألسنتهم أنهم آمنوا وأطاعوا، فتفضح السورة دواخلهم: "أَفِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَمِ ٱرْتَابُوٓاْ أَمْ يَخَافُونَ أَن يَحِيفَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُۥ ۚ بَلْ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ" [النور: ٥٠]. ويظهر الفرق بين الخوف في الآية (٣٧) والآية (٥٠)، فتقليب القلوب والأبصار (الآية ٣٧) يعني اضطرابها عن مكانها خوفًا وفزعًا،[57] وهو ما فهمه المؤمنون وعملوا لأجله في الدنيا ليأمنوا في الآخرة،[58] أما المنافقون الظالمون (الآية ٥٠) فلم يثمر اعترافهم باللسان تسليمًا وإيمانًا في القلوب لأنهم ظنوا أن الإيمان مسألة مُزَعزعة، ففئة منهم أبطنت الكفر وأخرى أعرضت عن العمل بحكم الرسول ﷺ خوفًا من حصول الظلم في الخصومة،[59] تصرف المنافقين السابق وقسمهم على الطاعة لو أمرهم النبي ﷺ بالخروج للقتال في قوله تعالى: "۞ وَأَقْسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ لَئِنْ أَمَرْتَهُمْ لَيَخْرُجُنَّ ۖ قُل لَّا تُقْسِمُواْ ۖ طَاعَةٌ مَّعْرُوفَةٌ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ" [النور: ٥٣] متناسب مع ما تصفه سورة الأنعام من ردة فعل الكافرين حين جاءهم القرآن فهم يعرضون ويجادلون مهما رأوا من آيات: "وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ ۖ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِيٓ

ءَاذَانِهِمۡ وَقۡرٗاۖ وَإِن يَرَوۡاْ كُلَّ ءَايَةٖ لَّا يُؤۡمِنُواْ بِهَاۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوكَ يُجَٰدِلُونَكَ يَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ" [الأنعام: ٢٥]، وتارة أخرى يقسمون بأن لو جاءتهم الآيات كما طلبوا فإنهم سيؤمنون: "وَأَقۡسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهۡدَ أَيۡمَٰنِهِمۡ لَئِن جَآءَتۡهُمۡ ءَايَةٞ لَّيُؤۡمِنُنَّ بِهَاۚ قُلۡ إِنَّمَا ٱلۡأٓيَٰتُ عِندَ ٱللَّهِۖ وَمَا يُشۡعِرُكُمۡ أَنَّهَآ إِذَا جَآءَتۡ لَا يُؤۡمِنُونَ" [الأنعام: ١٠٩]، الكافرون في الأنعام والمنافقون في سورة النور بعضهم من بعض، هم أهل الظلمات السائرون فيها بكل إصرار، في حين أن النور واحد وأهله هم المؤمنون بقلوبهم وعقولهم وحواسهم وأعمالهم.

الفرع الثاني: العلم الرباني في آية النور وسياق سورة الأنعام

آية النور التي ابتدأت بصفة النور انتهت بذكر صفة العلم بمن يهتدي بالنور ومن لا يهتدي، أهل الكفر والنفاق الذين بينت السورتان أحوالهم لا تخفى قلوبهم على الله العليم، ولا يخفى عليه جدالهم ومكرهم وانغماسهم في الظلمات وابتعادهم عن النور؛ لذا علم الله الشامل قد ارتبط بنوره ومثل النور في قلب المؤمن، وارتبط بملكه للسموات والأرض كما في ختام السورة،[60] بل إن السورة تذكر علمه تعالى بتسبيح المخلوقات وملكه لكل شيء،[61] في حين أن سورة الأنعام كذلك بعد أن تسوق جدال المشركين وطلبهم الآيات تؤكد علم الله بكل شيء بتعابير مختلفة: يعلم سركم وجهركم،[62] وعالم الغيب والشهادة،[63] وعنده مفاتح الغيب: "۞ وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلۡغَيۡبِ لَا يَعۡلَمُهَآ إِلَّا هُوَۚ وَيَعۡلَمُ مَا فِي ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِۚ وَمَا تَسۡقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعۡلَمُهَا وَلَا حَبَّةٖ فِي ظُلُمَٰتِ ٱلۡأَرۡضِ وَلَا رَطۡبٖ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَٰبٖ مُّبِينٖ - وَهُوَ ٱلَّذِي يَتَوَفَّىٰكُم بِٱلَّيۡلِ وَيَعۡلَمُ مَا جَرَحۡتُم بِٱلنَّهَارِ ثُمَّ يَبۡعَثُكُمۡ فِيهِ لِيُقۡضَىٰٓ أَجَلٞ مُّسَمّٗىۖ ثُمَّ إِلَيۡهِ مَرۡجِعُكُمۡ ثُمَّ يُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ - وَهُوَ ٱلۡقَاهِرُ فَوۡقَ عِبَادِهِۦۖ وَيُرۡسِلُ عَلَيۡكُمۡ حَفَظَةً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَكُمُ ٱلۡمَوۡتُ تَوَفَّتۡهُ رُسُلُنَا وَهُمۡ لَا يُفَرِّطُونَ - ثُمَّ رُدُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ مَوۡلَىٰهُمُ ٱلۡحَقِّۚ أَلَا لَهُ ٱلۡحُكۡمُ وَهُوَ أَسۡرَعُ ٱلۡحَٰسِبِينَ" [الأنعام: ٥٩-٦٢]، هنا تعلن السورة لهم بكل وضوح العودة لله والحساب عبر الموت كما أنه بديع السموات والأرض وخالق كل شيء والعليم بكل شيء.[64]

استخدام تعبير "ظُلُمَٰتِ ٱلۡأَرۡضِ"[65] في سياق يذكر الغيب وعلم الله يبين العجز الإنساني والضعف البشري أمام العلم الإلهي المطلق، والفرق بين صفات الخالق القاهر والمخلوق الخاضع لقهر الإله للدلالة على الوحدانية، وهذا وجه آخر للتناسب الموضوعي بين السورتين.

لفظ "ظلمات/ الظلمات" يجيء في الأنعام ست مرات، أربعة مواضع منها تتعلق أولاً ببيان القدرة الإلهية (الآية ١، ٥٩) والإنعام على الناس وتحقيق النجاة لهم من ظلمات البر والبحر (الآية ٦٣)، وأخيرًا ببيان تسخير النجوم المنيرة للاهتداء في ظلمات البر والبحر (الآية ٩٧)، وموضعان لبيان حال الكافرين في ظلمات الكفر (الآيات ٣٩، ١٢٢). تعبير "ظُلُمَٰتِ ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِۖ" [الأنعام: ٦٣، ٩٧] الذي سيق لبيان قدرة الله قريب من ظلمات البحر المذكورة في سورة النور لتشبيه حال أهل الكفر والشك في سورة النور: "وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَعۡمَٰلُهُمۡ كَسَرَابِۭ بِقِيعَةٖ يَحۡسَبُهُ ٱلظَّمۡـَٔانُ مَآءً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ لَمۡ يَجِدۡهُ شَيۡـٔٗا وَوَجَدَ ٱللَّهَ عِندَهُۥ فَوَفَّىٰهُ حِسَابَهُۥۗ وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلۡحِسَابِ - أَوۡ كَظُلُمَٰتٖ فِي بَحۡرٖ لُّجِّيّٖ يَغۡشَىٰهُ مَوۡجٞ مِّن فَوۡقِهِۦ مَوۡجٞ مِّن فَوۡقِهِۦ سَحَابٞۚ ظُلُمَٰتُۢ بَعۡضُهَا فَوۡقَ بَعۡضٍ إِذَآ أَخۡرَجَ يَدَهُۥ لَمۡ يَكَدۡ يَرَىٰهَاۗ وَمَن لَّمۡ يَجۡعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورٗا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ - أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَٱلطَّيۡرُ صَٰٓفَّٰتٖۖ كُلّٞ قَدۡ عَلِمَ صَلَاتَهُۥ وَتَسۡبِيحَهُۥۗ وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِمَا يَفۡعَلُونَ - وَلِلَّهِ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلۡمَصِيرُ" [النور: ٣٩-٤٢]، ويتكرر لفظ "ظلمات" مرتين فقط في سورة النور، ولكن السياق والمعاني يتشابهان مع معاني آيات الأنعام (٥٩-٦٢) التي تذكر صفات الربوبية والحساب، ويبدو أن لفظ "ظلمات" جاء في السورتين في سياق يبين قدرة الله وعلمه بكل شيء وبأحوال الكافرين وبالحساب والعودة إلى الله.

وأخيرًا فإن التكرار لكلمة النور ولفظ الجلالة في آية النور يوضح المتضادات: النور والظلمات، والهدى والضلال، والمعنى المراد من كلمة "النور"، وهو الاهتداء إلى العلم

والصالحات من الأقوال والأعمال، ويضاف إلى ذلك ما تحمله كلمة "نور" والتشبيه في الآية من الانتقال من المعاني العقلية إلى الحسية التي تحرك دوافع طلب الهداية وسلوك سبيلها وانشراح الصدر لها واطمئنانه بها.[66] ويمكن القول بأن استخدام لفظي "النور" و"الظلمات" في السورتين يشير إلى تعريف الناس بقوة الخالق وقدرته وإنعامه بالمخلوقات المشاهدة المحسوسة الدالة على الربوبية بلا منازع من جهة، ومن جهة أخرى يشير إلى توضيح الفرق بين المؤمنين الذين أبصروا النور والهدى والكافرين والمنافقين أهل الظلمات والضلال الذين بقوا في الظلمات رغم رؤيتهم للآيات.

الخلقُ والعلمُ والنورُ ومنحه للمخلوقات صفاتٌ ربانية تعرضها السورتان لغرض إثبات الوحدانية وبيان الفرق بين الإيمان والكفر، الله تعالى منزه عن نقص المخلوقات وهو فاطرها وخالقها، يُطعِم ولا يُطعَم، كتب على نفسه الرحمة، كاشف الضر ويمس بالخير، لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار ومرسل البصائر ليبصروا، القادر والقاهر فوق عباده، بديع السموات والأرض، فكيف يرجون حكمًا غيره؟ وكيف يبغون ربًا سواه؟[67] لذا فإن جعل الله للنور والظلمات هو دلائل على الربوبية وآيات عليها، وأمرٌ يستحق الحمد، هذا الحمد يأتي في أول الأنعام لاستحقاقه تعالى الحمد دون سواه من المعبودات الباطلة والآلهة التي لا تنفع ولا تضر؛ فكان الحمد في دعاء النبي ﷺ (المؤمن) الذي يقرر فيه قدرة الله ونوره وملكه للسموات والأرض،[68] وكان فعل الحمد هو قمة الاعتراف بالربوبية والقصور الإنساني والاحتياج لرب العالمين.

رؤية إبراهيم للكواكب لإثبات التوحيد في سورة الأنعام والتناسب مع وسط سورة النور

.....

يتم هنا استعراض موضوعي الآيات والصراط المستقيم في السورتين مع بيان علاقتهما بموضوع النور، ثم العروج إلى قراءة قصة إبراهيم عليه السلام في سورة الأنعام وبيان تناسبها مع آية النور والآيات الكونية المذكورة في سورة النور.

المطلب الأول: "الآيات" و"الصراط المستقيم" في سورتي الأنعام والنور

يناقش هذا المطلب أولاً موضوع الآيات، ثم موضوع الصراط ومواضعهما في السورتين مع بيان ارتباطهما بموضوع النور.

الفرع الأول: "الآيات" في سورتي الأنعام والنور

توجد أسباب عديدة للحديث عن موضوع الآيات والصراط المستقيم في هذه الدراسة، من أهمها: أن الموضوعين ذُكرا في السورتين في سياقات وزمانين مختلفين أحدهما مكي (الأنعام) والآخر مدني (النور)، ويجيء فيهما ذكر الآيات والصراط مجتمعين في الآية الواحدة أيضًا، وكذلك افتتاح السورتين بذكر الآيات على تعدد أنواعها، فسورة الأنعام من البداية تناقش طلب المشركين للآيات الحسية غير القرآن، وتؤكد إعراضهم عن كل آية جاءتهم (الآيات ٤-٥)، وكان الجواب على طلب المشركين هو إنزال الكتاب المبارك والأمر باتباع الوحي (الآيات ١٩، ٣٣، ٩٢، ١٠٦، ١١٤، ١٥٥)، والأمر بالنظر في الآيات الكونية والسير في الأرض لرؤية الآيات وعاقبة الأمم السابقة،[69] والسورة لا تكتفي بتصريف الآيات بل تفصّلها (الآية ٥٥)، فجاءت الآيات حسية ومعنوية، وارتبط بعضها بالنور والهداية والتسخير مثل: فلق الإصباح، وجعل النجوم ليهتدوا بها في ظلمات البر والبحر،[70] مع بيان عظمة الله وقدرته وعجز المخلوقات والبشر وقصورهم، لكنهم ما قدروا الله حق قدره وجعلوا له شركاء بغير علم، وذكرت السورة أن لو أُنزلت الملائكة كما يطلب المشركون أو بُعث لهم الموتى أو حُشرت لهم الآيات الخارقة ما كانوا ليؤمنوا،[71] فهم لن يؤمنوا كما لم يؤمنوا بالقرآن أول مرة (الآية ١١٠)، وكان أعداء الأنبياء من شياطين الجن والإنس يوحون لأوليائهم الباطل ويزينونه

لهم، وكان الذين لا يؤمنون بالآخرة يميلون لأقوالهم ويغترون بهم (الآيات ١١٢-١١٣)، لكن الله أنزل القرآن كتابًا مفصلاً مبَينًا (الآية ١١٤)، وضرب الله لهم مثل المكذب بالآيات ومثل الماشي بالنور ومثل الماشي في الظلمات، وكان الانتقال من الآيات الحسية المختلفة إلى المعنوية (آيات القرآن وأمثاله وعظاته)[72] انتقالاً متناغمًا سلسًا في السورة.

وفي المقابل سورة النور لا تختلف عن سورة الأنعام، فهي تفتتح بذكر "سورة" امتن الله بإنزالها على الناس ووصفها بثلاث صفات: "سُورَةٌ أَنزَلْنَٰهَا وَفَرَضْنَٰهَا وَأَنزَلْنَا فِيهَآ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ لَّعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ" [النور: ١]، ثم تعود السورة لذكر ثلاث صفات أخرى للسورة: "وَلَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ ءَايَٰتٍ مُّبَيِّنَٰتٍ وَمَثَلًا مِّنَ ٱلَّذِينَ خَلَوْاْ مِن قَبْلِكُمْ وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ" [النور: ٣٤]،[73] ثم في القسم الأخير يأتي الصراط مرة واحدة في سورة النور (الآية ٤٦) مع الآيات المبينات (إشارة إلى آيات القرآن لإقامة الحجة على الناس)،[74] يقول أبو السعود معلقًا على موضوع البيان بأن آية النور تقرر ما سبقها من البيان في الأحكام والتشريعات، وكل بيان أتى وسيأتي في القرآن لغاية الهدى والرشاد، ويوضح أن هذا البيان جاء في أتم الصور وأكملها، ويشمل كل ما استنار بنور الله من أجرام في السماء والأرض لكونها مظاهر للنور المحسوس، أو لأنه بيّن حالها وأخبر عنه جملة أو تفصيلاً، أو لأنها دلائل على وجود الخالق وصفاته وحقيقة البعث، أو لهداية الله أهل السموات والأرض، واختار أبو السعود أن جملة "مَثَلُ نُورِهِۦ" تشير إلى القرآن الموصوفة آياته بأنها نزلت للبيان وكان نورًا.[75] ويمكن القول بأن لفظ النور الذي لا يظهر في طرفي السورة يكون نظيره هو تكرار الآيات المبينات وتبيين الله لها (النور: ١٨، ٥٨-٥٩، ٦١) وكون الرسول ﷺ جاء بالبلاغ المبين (النور: ٥٤)، ومن خلال التكرار لموضوع تبيين الآيات ترتبط كل أقسام سورة النور.

ويذكر البقاعي أن علة ارتباط آية النور بما قبلها هو أن الله تعالى الذي أنزل الآيات هو نور السموات والأرض وخالقهما ومن فيهما وهو الذي هداهم بنور العلم إلى

الصراط المستقيم: "كالماشي في نور الشمس، لا يضع شَيئًا في غير موضعه كما أن الماشي في النور لا يضع رِجلًا في غير موضعها اللّائق بها، ولا شكَّ أن النُّور هو ما به تظهر به الأشياء وتنكَشف، فَهو سبحانه مظهرها، وهما وما فيهما دالٌّ على ظهوره، وأنَّه تام القدرة شامل العلم حاو لصفات الكمال، مُنَزَّهٌ عن شوائب النَّقْص"،[76] فالله تعالى نور السموات والأرض يبين الآيات في السورة: "وَيُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْأَيَٰتِۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ" [النور: ١٨]، "كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْأَيَٰتِۖ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ" [النور: ٥٨]، "كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ" [النور: ٥٩]، "كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْأَيَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ" [النور: ٦١]. وبالتالي يجيء موضوع الآيات وبيانها في كل أقسام السورة سواء كانت آيات المواعظ أو الآيات التشريعية وصولاً إلى الدلائل الكونية على قدرة الله ومَثل السابقين.[77] ويمكن القول بأن تبيين الآيات القرآنية والآيات الكونية الدالة على الوحدانية في سورة النور هو بيان لآية النور وجملة "ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ".

الحديث عن الآيات الكونية المرئية للناس وتبيين الآيات المختلفة في سورة النور يتناسب مع موضوع تصريف الآيات في سورة الأنعام ومنح الله السمع والأبصار والقلوب لتفهم وترى تصريف الآيات المختلفة من خلق السموات والأرض وجعل الظلمات والنور وغيرها، وقدرته تعالى على سلب حواسهم كما خلقها: "قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ ٱللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَٰرَكُمْ وَخَتَمَ عَلَىٰ قُلُوبِكُم مَّنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِهِۦۗ ٱنظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ ٱلْأَيَٰتِ ثُمَّ هُمْ يَصْدِفُونَ" [الأنعام: ٤٦]،[78] ويتناسب كذلك مع التشبيه بالأعمى والبصير حين يجادل المشركون في الحق ومجيء الوحي ويطالبون بالآيات الحسية:[79] "قُل لَّآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِي خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌۖ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّۚ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُۚ أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ" [الأنعام: ٥٠]، فالبصير رأى الآيات على حقيقتها وآمن بها بدون جدال، ووضع المخلوقات في مواضعها، وعرف الخالق وقدرته، والكافر الأعمى الذي لم يعرف

قدرة الله لم يقبل بالوحي وأصابه التخبط لفساد عقله والتباسه، وهذا التشبيه متناسب مع ما يأتي في السورة من رؤية إبراهيم عليه السلام للكواكب حيث رأى حقيقتها ووَضَعَها في أماكنها المناسبة لحالها المخلوقة عليه، بالإضافة إلى أن عدم تساوي البصير والأعمى يتناسب مع النور والظلمات ومثل الصم البكم (الأنعام: ٣٩) ومثل الميت الذي جعل الله له نورًا فأحياه والماشي في الظلمات (الأنعام: ١٢٢). البصير يؤمن بالبصائر التي جاءت من الله، وقد سبقها في السياق ذكر عدد من الآيات التي تدل على الربوبية والوحدانية الساطعة:[80] "قَدۡ جَآءَكُم بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمۡۖ فَمَنۡ أَبۡصَرَ فَلِنَفۡسِهِۦۖ وَمَنۡ عَمِيَ فَعَلَيۡهَاۚ وَمَآ أَنَا۠ عَلَيۡكُم بِحَفِيظٖ" [الأنعام: ١٠٤]. هذه البصائر يحصل بها العلم بالله وقدرته، وقد جيء الحديث عنها لشرح ما جاء قبلها من ذكر الظواهر الكونية من فلق النوى والإصباح وإخراج الحي من الميت والعكس وتسخير الشمس والقمر والنجوم وخلق الإنسان وإنزال الماء وإخراج النباتات المختلفة والمتشابهة (الأنعام: ٩٥-١٠٣).[81] وهكذا يظهر أن سورة الأنعام قد جاءت بالآيات القرآنية والكونية كما جاء في سورة النور.

الفرع الثاني: "الصراط المستقيم" في سورتي الأنعام والنور

الآية الوحيدة التي تذكر الصراط في سورة النور هي قوله تعالى: "لَّقَدۡ أَنزَلۡنَآ ءَايَٰتٖ مُّبَيِّنَٰتٖۚ وَٱللَّهُ يَهۡدِي مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ" [النور: ٤٦]،[82] ويجيء "الصراط المستقيم" خمس مرات في الأنعام، ويرتبط في أحدها بذكر المكذبين بالآيات وكونهم في الظلمات: "وَٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا صُمّٞ وَبُكۡمٞ فِي ٱلظُّلُمَٰتِۗ مَن يَشَإِ ٱللَّهُ يُضۡلِلۡهُ وَمَن يَشَأۡ يَجۡعَلۡهُ عَلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ" [الأنعام: ٣٩]، أو بتفصيل الآيات لمن يتذكر: "وَهَٰذَا صِرَٰطُ رَبِّكَ مُسۡتَقِيمٗاۗ قَدۡ فَصَّلۡنَا ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يَذَّكَّرُونَ" [الأنعام: ١٢٦]، وفي الموضعين الآخرين بالرسالة والأنبياء عليهم السلام: "وَمِنۡ ءَابَآئِهِمۡ وَذُرِّيَّٰتِهِمۡۖ وَإِخۡوَٰنِهِمۡۖ وَٱجۡتَبَيۡنَٰهُمۡ وَهَدَيۡنَٰهُمۡ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ" [الأنعام: ٨٧]، "وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسۡتَقِيمٗا فَٱتَّبِعُوهُۖ وَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ

بِكُمۡ عَن سَبِيلِهِۦۚ ذَٰلِكُمۡ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ" [الأنعام: ١٥٣]، وفي الموضع الخامس بملة إبراهيم عليه السلام: "قُلۡ إِنَّنِي هَدَىٰنِي رَبِّيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ دِينٗا قِيَمٗا مِّلَّةَ إِبۡرَٰهِيمَ حَنِيفٗاۚ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ" [الأنعام: ١٦١]. ويرادف الصراط في الأنعام لفظ "سبيل الله": "وَإِن تُطِعۡ أَكۡثَرَ مَن فِي ٱلۡأَرۡضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنۡ هُمۡ إِلَّا يَخۡرُصُونَ - إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعۡلَمُ مَن يَضِلُّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعۡلَمُ بِٱلۡمُهۡتَدِينَ" [الأنعام: ١١٦-١١٧]، ويأتي السبيل مع تفصيل "الآيات" في سياق يذكر سبيل الكافرين: "وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلۡأٓيَٰتِ وَلِتَسۡتَبِينَ سَبِيلُ ٱلۡمُجۡرِمِينَ" [الأنعام: ٥٥].

الآيات والصراط جاءا في سياق يذكر النور والظلمات وضرب المثل بهما للإيمان والكفر (النور: ٣٥، ٣٩-٤٠، الأنعام: ٣٩، ١٢٢)، آية النور التي افتتحت بصفات الربوبية مع إشارتها إلى الآيات المعنوية وجعل الهداية بيد الله تعالى جاء بعدها الآيات الحسية الدالة على قدرة الله وجُعِلتْ الهداية للصراط بيد الله بعد إنزال الآيات وبيانها (النور: ٤٦)، ويمكن ملاحظة الارتباط نفسه بين الآيات والهداية إلى الله وصراطه في سورة الأنعام من خلال تصريف وتفصيل الآيات المعنوية والحسية، والإتيان بالحجة التي احتج بها إبراهيم عليه السلام أمام أبيه وقومه حين رأى المحسوسات وأفولها، وكان الغرض من ذكر هذه الحجة في السورة هو بيان صفات الربوبية من الخلق والقدرة عبر الآيات الكونية المشاهدة وتأكيد وحدانية الله فاطر السموات والأرض،[83] فكانت القصة كآية أخرى للهداية إلى الصراط المستقيم، وكان إعلان إبراهيم لتوحيده متناسب مع الأمر للرسول ﷺ بإعلان هداية الله له إلى صراط مستقيم الذي هو في الأصل ملة إبراهيم الخليل (الأنعام: ١٦١).[84]

وأوضح الرازي أن قوله تعالى في أول سورة النور "وَأَنزَلۡنَا فِيهَآ ءَايَٰتِۭ بَيِّنَٰتٖ" [النور: ١] يعني "إشارة إلى ما بُيِّنَ من دلائل التوحيد، والذي يؤكد هذا التأويل قوله:

"لَّعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ" فإن الأحكام والشرائع ما كانت معلومة لهم لِيُؤْمَرُوا بتذكيرها. أما دلائل التوحيد فقد كانت كالمعلومة لهم لظهورها فَأُمِرُوا بتذكيرها".[85] و"دلائل التوحيد" التي أشار إليها الرازي جاءت في وسط النور وكانت للتذكير بصفات الربوبية. نزول السورة وما فيها من الآيات البينات للتذكير "لَّعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ" [النور: ١][86] كان دليلاً إلى النور "ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ" وما يتبعه من الآيات المحسوسة، ومثلاً لتوقد النور في قلوب رجال لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن "ذكر" الله والصلاة والزكاة (ملة إبراهيم الخليل).[87] وهذا التذكير يرادفه "الذكرى" في الأنعام في سياق خوض المشركين في الآيات: "وَإِذَا رَأَيۡتَ ٱلَّذِينَ يَخُوضُونَ فِيٓ ءَايَٰتِنَا فَأَعۡرِضۡ عَنۡهُمۡ حَتَّىٰ يَخُوضُواْ فِي حَدِيثٍ غَيۡرِهِۦۚ وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ ٱلشَّيۡطَٰنُ فَلَا تَقۡعُدۡ بَعۡدَ ٱلذِّكۡرَىٰ مَعَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ - وَمَا عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَّقُونَ مِنۡ حِسَابِهِم مِّن شَيۡءٖ وَلَٰكِن ذِكۡرَىٰ لَعَلَّهُمۡ يَتَّقُونَ" [الأنعام: ٦٨-٦٩]. التذكير بالتوحيد أيضًا جاء على لسان إبراهيم عليه السلام: "وَحَآجَّهُۥ قَوۡمُهُۥۚ قَالَ أَتُحَآجُّوٓنِّي فِي ٱللَّهِ وَقَدۡ هَدَىٰنِۚ وَلَآ أَخَافُ مَا تُشۡرِكُونَ بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يَشَآءَ رَبِّي شَيۡـٔٗاۗ وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيۡءٍ عِلۡمًاۗ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ" [الأنعام: ٨٠]، وجاء كذلك أمرًا للنبي ﷺ: "أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقۡتَدِهۡۗ قُل لَّآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ أَجۡرًاۖ إِنۡ هُوَ إِلَّا ذِكۡرَىٰ لِلۡعَٰلَمِينَ" [الأنعام: ٩٠]. "ذكر اسم الله" على الأنعام يأتي في عدد من الآيات (الأنعام: ١١٨-١٢١) ويأتي بعده فورًا مثَل الذي أحياه الله بالنور والذي يمشي في الظلمات (الأنعام: ١٢٢)، ثم مثَل مَن شُرح صدره للإسلام ومَن جُعل صدره ضيقًا (الأنعام: ١٢٥)، يتبعه موضوع تفصيل الآيات والصراط والتذكير: "وَهَٰذَا صِرَٰطُ رَبِّكَ مُسۡتَقِيمٗاۗ قَدۡ فَصَّلۡنَا ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يَذَّكَّرُونَ" [الأنعام: ١٢٦]، وأخيرًا يأتي التذكير في الوصايا في سورة الأنعام (الآيات ١٥١-١٥٣) عبر الصيغة نفسها في فاتحة النور، وسياق يتحدث عن الصراط المستقيم (الآية ١٥٣): "وَبِعَهۡدِ ٱللَّهِ أَوۡفُواْۚ ذَٰلِكُمۡ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ" [الأنعام: ١٥٢]. التذكير بالله ووحدانيته وقدرته جاء عبر "الآيات" المختلفة

في السورتين، التذكير كان جزءًا جوهريًا في فاتحة النور وردًا على قوم إبراهيم حين حاجّوه في ربه.

المطلب الثاني: قراءة قصة إبراهيم في سورة الأنعام مع وسط سورة النور

في هذا المطلب يتم تحليل قصة رؤية إبراهيم عليه السلام للكواكب في سياقها مع بيان ارتباطها بأجزاء السورة، وبيان الرابط بين قصة إبراهيم وآية النور، ثم إظهار التناسب بين القصة وأمثال النور والظلمات.

الفرع الأول: التناسب بين قصة إبراهيم وآية النور

تحكي سورة الأنعام رؤية إبراهيم عليه السلام للكواكب وظهورها في حضرة قومه،[88] ومحاجتهم له في ربه، والقصة متناسبة مع سياق السورة العام الذي يركز على التوحيد وخلق الله تعالى لهذا الكون وتصرفه فيه وحده لا شريك له، فهو وحده الذي يعلم ما في البر والبحر (الآية ٥٩)، وهو الذي منح النور لهذه الكواكب الظاهرة، وجعل النجوم للاهتداء بها في ظلمات البر والبحر (الآية ٩٧)، مع تأكيد السياق للوحي والنبوة والآخرة والجزاء، وحديثه عن جاهلية العرب وشركهم وتحريمهم ما رزقهم الله. هذه السورة التي أُفتتحت بالحمد للخالق، وجاء فيها الأوامر للنبي ﷺ (الآيات ١٢-١٩) بـ "قل" بأن الله هو الخالق والذي كتب على نفسه الرحمة وأنه يُطعم ولا يُطعَم، وهو الإله الواحد الذي أنزل القرآن والقاهر فوق عباده، يأتي فيها الأمر نفسه بأن يقول النبي ﷺ أن لله الحجة البالغة "الغالبة" التي جاء بها الرسل لهداية الناس وإيقاظ عقولهم بالحقائق كما هي سنته تعالى،[89] ولو شاء الله لهدى الناس أجمعين (الآية ١٤٩)، ويأتي في ختامها الأوامر للنبي ﷺ (الآيات ١٦١-١٦٥) مرة أخرى مبدوءة بـ "قل" ليعلن فيها اهتداءه إلى صراط مستقيم واتباعه ملة إبراهيم عليه السلام، وإعلانه أن صلاته وحياته ونسكه ومماته لله رب العالمين لا رب سواه. ويتكرر تعبير "هدى الله" في سورة الأنعام،[90] ويرتبط في موضعين بالقوم الذين رفعهم الله درجات وهم الأنبياء، موضوع الاقتداء بالأنبياء يجيء واضحًا في

السورة بعد قصة إبراهيم (الآيات ٨٨-٩٠)، فهم الأنوار التي أرسلها الله لهداية الناس إلى صراط مستقيم. في هذا السياق المليء بعظمة الله وقوته وملكه مفاتح الغيب وعلمه الغيب والشهادة وتنزهه عن الصاحبة والولد، تحكي السورة استدلال إبراهيم عليه السلام بما في الكون من آيات منيرة ظاهرة ليبين وحدانية الله وربوبيته للمخلوقات والناس.

السؤال الآن: أين هو الرابط بين آية النور وقصة إبراهيم عليه السلام؟ تجدر البداية من آية الأنعام التي تذكر ملكوت السموات والأرض:[91] "وَكَذَٰلِكَ نُرِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلۡمُوقِنِينَ" [الأنعام: ٧٥]، وذكر المفسرون أن المقصود من الملكوت الذي شاهده إبراهيم عليه السلام كالتالي: القول الأول: خلق السموات والأرض،[92] الثاني: آيات السموات والأرض،[93] الثالث: الملك،[94] الرابع: النجوم والقمر والشمس.[95] وذهب الطبري إلى أن المعنى الأرجح هو "ملك السموات والأرض" وما فيهما من الكواكب والنبات والدواب،[96] وقول الطبري يظهر فيه الجمع بين الأقوال المتعددة في معنى الملكوت، وجعله الزمخشري بمعنى "الربوبية والإلهية".[97] معنى الملك في لفظ "ملكوت" يظهر فيه معنى الخَلْق (الفاطر/الربوبية) والألوهية كما جاء قول إبراهيم لقومه في السياق نفسه: "إِنِّي وَجَّهۡتُ وَجۡهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ حَنِيفٗاۖ" [الأنعام: ٧٩]. وهنا يمكن ملاحظة الرابط لأن آية النور كذلك تفتتح بذكر السموات والأرض:[98] "ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشۡكَوٰةٖ فِيهَا مِصۡبَاحٌۖ ٱلۡمِصۡبَاحُ فِي زُجَاجَةٍۖ ٱلزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوۡكَبٞ دُرِّيّٞ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٖ مُّبَٰرَكَةٖ زَيۡتُونَةٖ لَّا شَرۡقِيَّةٖ وَلَا غَرۡبِيَّةٖ يَكَادُ زَيۡتُهَا يُضِيٓءُ وَلَوۡ لَمۡ تَمۡسَسۡهُ نَارٞۚ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٖۚ يَهۡدِي ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُۚ وَيَضۡرِبُ ٱللَّهُ ٱلۡأَمۡثَٰلَ لِلنَّاسِۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ" [النور: ٣٥]. ويأتي تسبيح المخلوقات لله وملكه للسموات والأرض في القسم الوسط من سورة النور بعد ضرب المثل بظلمات الكافرين وأعمالهم: "أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَٱلطَّيۡرُ صَٰٓفَّٰتٖۖ كُلّٞ قَدۡ عَلِمَ صَلَاتَهُۥ وَتَسۡبِيحَهُۥۗ وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِمَا يَفۡعَلُونَ - وَلِلَّهِ

مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ" [النور: ٤١-٤٢]. ويجيء أخيرًا خلق كل شيء في ختام وسط سورة النور: "وَٱللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَآبَّةٍ مِّن مَّآءٍ ۖ فَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰ بَطْنِهِۦ ۖ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰ رِجْلَيْنِ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰٓ أَرْبَعٍ ۚ يَخْلُقُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ" [النور: ٤٥]، وهذا ابتداء يجعل معاني آية الأنعام "مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ" في انسجام مع معاني: "ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ"، "وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ" [النور: ٤٢]، "أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ" [النور: ٦٤].

أيضًا من الروابط بين آية النور وقصة إبراهيم عليه السلام هو موضوع الهداية المذكور في السياقين، الله يهدي لنوره من يشاء (النور: ٣٥)، والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم (النور: ٤٦)، ويأتي الضلال (عكس الهداية) في حديث إبراهيم مع أبيه في بداية المقطع: "۞ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ ءَازَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا ءَالِهَةً ۖ إِنِّيٓ أَرَىٰكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ" [الأنعام: ٧٤]، وعند رؤية إبراهيم للكواكب الآفلة حيث يظهر نظامها المفطورة عليه: "قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلضَّآلِّينَ" [الأنعام: ٧٧]، وتأتي الهداية عند محاجة القوم لإبراهيم وإعلانه التوحيد: "وَحَآجَّهُۥ قَوْمُهُۥ ۚ قَالَ أَتُحَٰٓجُّوٓنِّي فِي ٱللَّهِ وَقَدْ هَدَىٰنِ ۚ" [الأنعام: ٨٠]. موضوع الهداية لا يمكن فصله عن تدبير الله لخلقه وهداية المخلوقات لوظائفها وأحوالها ونظامها، وهذه الهداية الفطرية للكواكب الظاهرة وغيرها لا تكون إلا من خالقها وفاطرها ومالكها، وهذا يعيدنا إلى معاني نور الله التي ساقها المفسرون وارتباطها بصفات الربوبية من الخَلْق والتدبير ومنح النور والهداية، هذا من جهة الهداية الفطرية الممنوحة للمخلوقات كالشمس والقمر، ومن جهة أخرى الهداية للصراط المستقيم والدلالة عليها بالأدلة الحسية والمعنوية، فيُلامس النور الفطرة السليمة في قلب المؤمن فتكون هداية على هداية، ونور على نور، وهذا ما قاله الرازي من أن المعنى هو "الهداية إلى العلم والعمل" بسبب ما

جاء في الآية من أن الله يهدي لنوره من يشاء،[99] ويقودنا إلى معنى "مَثَلُ نُورِهِۦ" والذي فيه إشارة إلى الهداية في قلب المؤمن عبر القرآن والآيات المبينات والوعظ،[100] وقد شرح أبو حيان أن آية النور متبوعة بذكر المهتدين الذين آمنوا، وبيان عباداتهم من الصلاة والزكاة والذكر والتسبيح تنزيهًا لله عن النقص مع التعبد في المساجد،[101] هؤلاء الذين اهتدوا كان إمامهم إبراهيم عليه السلام حين تبرأ من الشرك وأعلن إخلاصه لربه الفاطر، ونزهه عن الأفول، وبيّن أنه لا يخاف هذه المخلوقات فالله ربها وخالقها والمتصرف فيها، وكانت شريعته الصلاة والزكاة والشكر لله على نعمه، وكان من بعده النبي محمد ﷺ الذي اتبع ملة أبيه إبراهيم عليه السلام حنيفًا.

الفرع الثاني: التناسب بين رؤية إبراهيم للكواكب وأمثال النور والظلمات

قصة رؤية إبراهيم عليه السلام للكواكب تُشير إلى ما أبصره من ملك الله وقدرته اللامحدودة، فأشرق نور الإيمان والعلم بالله في قلبه دون أفول، وحصل له الإيقان والعلم بالله تعالى وقدرته بدون شك،[102] وكان إيقانه بالحس لا بالخبر.[103] وقد قام إبراهيم بتقريب هذا المعنى المليء بالربوبية والوحدانية لقومه عبر فكرة ظهور الكواكب وأحجامها وأفولها، فبيّن لهم صفات الخالق القاهر وتصرفه المطلق وكماله التام في مقابل قصور تلك المعبودات وعجزها عن الاستمرار في الحضور طوال الوقت. لقد حاجوه في ربه بعد بيان الحجة البالغة كما حاج قوم قريش نبيهم ﷺ (الأنعام: ١٤٨)، لكنه لم يتراجع عن توحيده التام مع افتقار قومه للحجة الصحيحة على معبوداتهم.

لقد ألهم الله إبراهيم الحجة (الأنعام: ٨٣)، وبيّن لقومه عدم رؤيتهم الحقيقة الواضحة خلف وظيفة هذه المخلوقات التي يرونها كل يوم، لقد أشرقت الكواكب وبددت ظلمات الليل لكنها ما لبثت أن أفلتْ وغربت، لكن الله الذي لم يقدروه حق قدره (الأنعام: ٩١) هو جاعل النور وفالق الحب والنوى وفالق الإصباح وجاعل النجوم هداية للناس في ظلمات البر والبحر والشمس والقمر حسبانًا (الأنعام: ٩٥-٩٧)، يقول

إصلاحي في تفسيره لآية النور بأن الكون كله بما فيه ظلام لكل مَن لم يؤمن بالله أو بصفاته، وأنه لولا هذا النور لم يدرك الإنسان سبب وجود الكون أو الغاية من الخلق وبقي يمشي في الظلمات،[104] وارتد إلى الحيرة وضل عن السبيل بعد الهدى (الأنعام: ٧١). الله الذي ينسبون له الجن والملائكة (الأنعام: ١٠٠) هو بديع السموات والأرض وخالق كل شيء (الأنعام: ١٠١)، الله الذي كتب على نفسه الرحمة مرتين (الأنعام: ١٢، ٥٤)، لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار (الأنعام: ١٠٣)، فمِن عظمته وعلوه وتنزهه لا يُرى نوره ولا يُحيط به بصر، أما أصنامهم ومعبوداتهم وكواكبهم فهي أجسام محددة ولها حدود، تُرى وتُشاهد وتُحَس، الله أمام أبصارهم يقلب الليل والنهار "**إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُوْلِي ٱلْأَبْصَٰرِ**" [النور: ٤٤]، كما بيّن إبراهيم ذو البصيرة هذه الحقيقة في ظهور الكواكب ثم غيابها.

نور الإيمان عندما يدخل القلب يمكن للبشر فهم الحقائق ومعرفتها، وهذا من رحمة الله أنه يهدي إلى معرفة أنه الفاطر الذي وسع كل شيء علمًا (الأنعام: ٧٩-٨٠)، إبراهيم أراد أن يبين الفرق بين نور الله ونور النيرات في الكون التي مآلها الأفول مهما أضاءت أو مكثت أو كبرت، لقد أراد نورًا لا ينتهي ولا يفنى ولا يتبدد، أراد نورًا فياضًا ودائمًا، نورًا يزيح ظلمات الشرك والأصنام والتعلق بغيره من المعبودات والأنوار الزائفة، وهذا هو نور التوحيد الذي أضاء قلبه فأعلن توجيه وجهه إلى فاطره. إعلان إبراهيم التوحيد بعد النظر في النيرات وأفولها دليل على أنها "آيات بينات/مبينات" على خالقها وموجدها وكونها لا تنفع ولا تضر بدون إذنه؛ لذلك تؤكد السورة أن الذين كذبوا بالآيات صم وبكم في الظلمات (الأنعام: ٣٩)، وهنا يشبّه حالهم بالصم البكم في الظلام لا يسمعون ولا يستهدون السبيل، فجعلهم من كفرهم وتكذيبهم في الظلمات التي تحول بينهم وبين الهداية.[105] المثير هنا أن ما حولهم مضيء بنور الله، ويسير في نظام وفق تدبير الله وتقديره، ولكنهم من كثرة إيغالهم في الضلال هم أنفسهم داخل الظلام ودواخلهم

غارقة في الظلمات، فحجبوا عنهم تسلل النور إليهم أو رؤيته فيما حولهم. لقد بينت لهم السورة مثَلَ مَن خرج من الظلمات إلى النور، وكأنه يمشي بالنور بين الناس من قوة ما صار عنده من رجاحة عقل تميّز بين الحق والباطل (الأنعام ١٢٢)، وأما الكافر كالميت في ظلمة القبر لا يخرج منه،[106] في حين أن المنافق في سورة النور لا يثبت نوره وإن بدا على ظاهره، ولكن باطنه غارق في الظلمة، ونوره ذاهب لا محالة،[107] فهؤلاء اختاروا العيش في ظلمات بعضها فوق بعض، وتزينت لهم ضلالاتهم وأعمالهم.

وبالتالي لا يستوى أعمى القلب والبصير قلبًا؛ لذا كان المثل في آية النور للمؤمن الذي رأى الدلائل كما يقول القرطبي "التي يقذفها الله في قلب المؤمن؛ والدلائل تسمى نورًا. وقد سمى الله تعالى كتابه نورًا... وسمى نبيه نورًا... وذلك أن يريد مثل نور الله الذي هو هداه وإتقانه صنعة كل مخلوق وبراهينه الساطعة على الجملة"،[108] فالله تعالى هو الذي يضرب الأمثال وينزل الآيات ويبينها، سواء كانت آيات القرآن أو الآيات البينات الدالة على وجود الله وتنزهه عن النقائص، كما أنه شرع الحدود والفرائض لتطهير المجتمع وحمايته مما يضره كالزنا والفاحشة والشائعات. وبالتالي يمكن القول بأن "**مَثَلُ نُورِهِۦ**" يمكن توضيحه بما حدث مع إبراهيم عليه السلام حين رأى الكواكب وأثبت الربوبية (الخَلق والنور) بالحجة العقلية، وهذه الرؤية كانت حجة وآية: "**وَمَثَلًا مِّنَ ٱلَّذِينَ خَلَوۡاْ مِن قَبۡلِكُمۡ وَمَوۡعِظَةٗ لِّلۡمُتَّقِينَ**" [النور: ٣٤]، ليس فقط مثلاً على العفة من خلال قصة يوسف عليه السلام،[109] بل مثلاً من السابقين المهتدين والأنبياء الصالحين الذين بينوا للناس عظمة الله وقدرته وأخرجوهم من الظلمات إلى النور.

خاتمة:

بيّنت هذه الدراسة وجود التناسب من حيث الألفاظ والمعاني بين آية النور والمثَل فيها وسياقها مع قصة إبراهيم عليه السلام في الأنعام وسياقها، وأوضحت أن الأمثال في السورتين للإيمان والكفر عبر استخدام النور والظلمات تكوّن رابطًا موضوعيًا

مهمًا بين السياقين، بالإضافة إلى ما تسوقه السورتان من الأدلة الكونية الظاهرة على الربوبية. وقد تناول المفسرون معنى النور والمثل في الآية للمؤمن، وتعددت أقوالهم وتضمنت المعاني الحسية والمعنوية مما ولد مزيدًا من المناسبة مع فاتحة الأنعام عن النور والظلمات في سياق تأكيد خلق الله للسموات والأرض وعرض آثاره وقدرته، وكان النور استعارة للحياة والإيمان والاهتداء، وكانت الظلمات كناية عن الموت والكفر والضلال، فجاءت رؤية إبراهيم للملكوت والكواكب بيانًا آخرًا لأمثال الإيمان والكفر عبر الحجة العقلية التي احتج بها على قومه، وأعلن توحيده لفاطر السموات والأرض وبراءته من الشرك، فكان إيمانه مثلاً لمن استنار بنور الله من القرآن والآيات البينات، وقدوةً للمؤمنين المهتدين.

وقد يتبادر إلى الذهن لماذا قراءة سورة النور مع سياق الأنعام المكية وليس مثلاً مع سورة الحديد المدنية التي تذكر النور وتفتتح بالتسبيح والآيات الكونية ويأتي فيها تبيين الآيات وموضوع المنافقين كما في سورة النور؟[110] والإجابة على هذا السؤال تكمن في محاولة فهم الأمثال في سورتي الأنعام والنور عبر جعلهما سياقًا لبعضهما لوجود الروابط الموضوعية واللغوية بين السورتين كما بيّنت هذه الدراسة، ومن أهم هذه الروابط هي قصة إبراهيم الرامية إلى إثبات الوحدانية عبر الآيات الكونية وتناسبها مع آية النور ومثَلها ووسط السورة، وإلا فإنه يمكن دراسة السياق الموضوعي المشترك بين سورتي النور والحديد المدنيتين لوجود العديد من الروابط، وقراءة السياقين معًا والنظر في النتائج. وهذا قد يفتح سبيلاً للباحثين لقراءة سياق ونظم السور التي تتشارك في طرح موضوع النور والظلمات، والانتقال من فهم المعاني فقط في سياق السورة الواحدة إلى سياق السور الأخرى عبر تفسير القرآن بالقرآن وبيان وحدته الموضوعية وتناسق أسلوبه وهداياته.

الآيات التي ساقها الله للهداية كانت آيات الكون وآيات القرآن، وكانت لتعريف الناس بالربوبية والألوهية والغاية من الخلق والمعاد. الآيات الكونية مُشاهدة بيّنة

وبنور الله انتظمت واهتدت ولا تحيد عن نظامها المفطورة عليه، والآيات القرآنية مبينة ومفصلة لكل ما يهدي إلى الله نور السموات والأرض، فكان القرآن نورًا وروحًا يهدي مَن عَقِل وأبصر إلى الصراط المستقيم. هذا القرآن متشابه يصدق بعضه بعضًا، ومثاني في آياته، بل وأمثاله وموضوعاته وقصصه وأحكامه، ولا تكون قراءة شاملة بدون جعله نفسه سياقًا واسعًا لموضوعات سوره ومعاني آياته. القرآن تسامى إعجازه لفظًا ومعنى ونظمًا حدًا أعجز فيه أهل البلاغة والفصاحة، ولا تزال سوره وآياته كنوزًا للاكتشاف والربط والتدبر، وحججًا وبراهين لإعمال العقل والفهم، وبصائر وذكرى لقوم يؤمنون.

الهوامش:

[1] محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (لبنان- بيروت: دار الكتب العلمية، ١١ مجلدات، ١٤١٣-١٩٩٣)، ١٢: ١٠٦.

[2] إبراهيم بن عمر البقاعي، مصاعد النظر للإشراف على مقاصد السور (تحقيق: عبد السميع محمد أحمد حسنين، السعودية- الرياض: مكتبة المعارف، الطبعة الأولى، مجلدان، ١٤٠٨-١٩٨٧)، ٢: ٣١٠.

[3] أحمد مصطفى المراغي، تفسير المراغي (لبنان – بيروت: دار إحياء التراث العربي، ٣٠ جزءًا، ت. د.)، ١٨: ٦٧.

[4] ميادة رشدي عكاوي، "الأبعاد الدلالية في سورة النور: دراسة تطبيقية"، مجلة جامعة الشارقة للعلوم الشرعية والدراسات الإسلامية-الإمارات، المجلد ١٦، العدد: ٢ (ديسمبر ٢٠١٩)، ٢٠٥- ٢٣٣.

[5] محمد بولقصاع، "ثلاثية حفظ العرض من خلال سورة النور-دراسة موضوعية-"، مجلة الاجتهاد للدراسات القانونية والاقتصادية، جامعة تامنغست-الجزائر، المجلد: ١١، العدد: ٢ (٢٠٢٢)، ٧٢٨-٧٢٩.

[6] المصدر السابق، ٧٣١.

[7] "وَلَقَدۡ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكُمۡ ءَايَٰتٖ مُّبَيِّنَٰتٖ وَمَثَلٗا مِّنَ ٱلَّذِينَ خَلَوۡاْ مِن قَبۡلِكُمۡ وَمَوۡعِظَةٗ لِّلۡمُتَّقِينَ" [النور: ٣٤].

[8] تفسير المراغي، ١٨: ١٠٧.

[9] محمد الطاهر ابن عاشور، التحرير والتنوير (تونس: دار سحنون للنشر والتوزيع، ٣٠ جزء، ت. د.)، ١٨: ٢٣٠-٢٣١.

[10] الموسوعة الحديثية، موقع الدرر السنية، https://www.dorar.net/hadith/sharh/23764، الإطلاع ٣١ مايو ٢٠٢٣.
قامَ فِينا رَسولُ اللهِ ﷺ بخَمْسِ كَلِماتٍ، فقالَ: إنَّ اللَّهَ عزَّ وجلَّ لا يَنامُ، ولا يَنْبَغِي له أنْ يَنامَ، يَخْفِضُ القِسْطَ ويَرْفَعُهُ، يُرْفَعُ إلَيْهِ عَمَلُ اللَّيْلِ قَبْلَ عَمَلِ النَّهارِ، وعَمَلُ النَّهارِ قَبْلَ عَمَلِ اللَّيْلِ، حِجابُهُ النُّورُ، وفي رِوايَةِ أبِي بَكْرٍ: النَّارُ، لو كَشَفَهُ لأَحْرَقَتْ سُبُحاتُ وجْهِهِ ما انْتَهَى إلَيْهِ بَصَرُهُ مِن خَلْقِهِ. رواه مسلم، كتاب الإيمان، بَاب فِي قَوْلِهِ عَلَيْهِ السَّلَام: إِنَّ اللَّهَ لَا يَنَامُ، وَفِي قَوْلِهِ :حِجَابُهُ النُّورُ لَوْ كَشَفَهُ لَأَحْرَقَ سُبُحَاتُ وَجْهِهِ مَا انْتَهَى إِلَيْهِ بَصَرُهُ مِنْ خَلْقِهِ، حديث رقم ١٧٩.

[11] رواه مسلم، كتاب الإيمان، باب في قوله عليه السلام: نور أني أراه. وفي قوله: رأيت نورًا، حديث ١٧٨.

[12] يقول ابن عاشور: "أيْ مِثْلَ ذَلِكَ الإراءِ العَجِيبِ نُرِي إبْراهِيمَ مَلَكُوتَ السَّماواتِ والأرْضِ... فاسْمُ الإشارَةِ في مِثْلِ هَذا الِاسْتِعْمالِ يُلازِمُ الإفْرادَ والتَّذْكِيرَ لِأنَّهُ جَرى مَجْرى المَثَلِ" (انظر: التحرير والتنوير، ٧: ٣١٥).

[13] "النيرات" تعبير أطلقه ابن عاشور على الكواكب في تفسيره قصة إبراهيم عليه السلام في سورة الأنعام.

[14] مصاعد النظر، ٢: ١١٨.

[15] Amīn Aḥsan Iṣlāḥī, *Tadabbur-e-Qur'ān* (Vol.5, Surah al-Nur 24). https://amin-ahsan-islahi.org/tadabbur-e-quran-vol-5-english/. Accessed on December 16, 2023), 1.

[16] يسري السيد محمد، بدائع التفسير الجامع لتفسير الإمام ابن قيم الجوزية (السعودية– الدمام: دار ابن الجوزي، ٥ مجلدات، ١٤١٤–١٩٩٣)، ٣: ٢٧٣؛ فخر الدين محمد بن عمر بن الحسين الرازي، التفسير الكبير أو مفاتيح الغيب (تخريج: عبد الرزاق غالب المهدي. بيروت: منشورات محمد علي بيضون، دار الكتب العلمية، الطبعة الثانية، ١٦ مجلد/ ٣١ جزءًا، ١٤٢٥–٢٠٠٤)، ٢٣: ١٩٥؛ الجامع لأحكام القرآن، ١٢: ١٧٥.

[17] عبد الحميد الفراهي، حجج القرآن: الحكمة البازغة والحجة البالغة (الهند: الدائرة الحميدية، الطبعة الأولى، ١٤٣٠ – ٢٠٠٩)، ١٥٦.

[18] كذلك في سورة الأحزاب (الآية ٤٣)، الحديد (الآية ٩)، الطلاق (الآية ١١).

[19] الأنعام: ١٣٦–١٤٦.

[20] قال ابن عاشور: "والفَرْقُ بَيْنَهُ وبَيْنَ (خَلَقَ)؛ فَإنَّ في الخَلْقِ مُلاحَظَةَ مَعْنى التَّقْدِيرِ، وفي الجَعْلِ مُلاحَظَةَ مَعْنى الِانْتِسابِ، يَعْنِي كَوْنَ المَجْعُولِ مَخْلُوقًا لِأجْلِ غَيْرِهِ أوْ مُنْتَسِبًا إلى غَيْرِهِ، فَيُعْرَفُ المُنْتَسِبُ إلَيْهِ بِمَعُونَةِ المقامِ. فالظُّلُماتُ والنُّورُ لَمّا كانا عَرَضَيْنِ كانَ خَلْقُهُما تَكْوِينًا لِتَكَيُّفِ مَوْجُوداتِ السَّماواتِ والأرْضِ بِهِما... وخَصَّ بِالذِّكْرِ مِنَ الجَواهِرِ والأعْراضِ عَرَضَيْنِ عَظِيمَيْنِ، وهُما: الظُّلُماتُ والنُّورُ فَقالَ :﴿وجَعَلَ الظُّلُماتِ والنُّورَ﴾ لِاسْتِواءِ جَمِيعِ النّاسِ في إدْراكِهِما والشُّعُورِ بِهِما. وبِذِكْرِ هَذِهِ الأُمُورِ الأرْبَعَةِ حَصَلَتِ الإشارَةُ إلى جِنْسَيِ المَخْلُوقاتِ مِن جَواهِرَ وأعْراضٍ. فالتَّفْرِقَةُ بَيْنَ فِعْلِ (خَلَقَ) وفِعْلِ (جَعَلَ) هُنا مَقْصُودٌ مِن فَصاحَةِ الكَلِماتِ. وإنَّ لِكُلِّ كَلِمَةٍ مَعَ صاحِبَتِها مَقامًا، وهو ما يُسَمّى في عُرْفِ الأُدَباءِ بِرَشاقَةِ الكَلِمَةِ، فَفِعْلُ (خَلَقَ) ألْيَقُ بِإيجادِ الذَّواتِ، وفِعْلُ (جَعَلَ) ألْيَقُ بِإيجادِ أعْراضِ الذَّواتِ وأحْوالِها ونِظامِها" (انظر: التحرير والتنوير، ٧: ١٢٦).

[21] الآية ٤٠ في سورة النور تضرب مثل أهل الظلمات أنهم في ظلمات بعضها فوق بعض وعدم اهتدائهم إلى الطريق من شدة كفرهم وغفلتهم عن الآيات وبطلان أعمالهم، وهي شبيهة في المعنى بالآية ٣٩ في الأنعام وتخبط أهل الكفر في الظلمات كالصم البكم بسبب تكذيبهم بالآيات، أما الآية ١٢٢ في سورة الأنعام فتبين أن الكافرين في الظلمات متحيرون لا يخرجون منها كالأموات في ظلمة القبور.

[22] التحرير والتنوير، ٨: ٥٩.

[23] المصدر السابق، ٨: ٥٧.

[24] محمد بن جرير الطبري، تفسير الطبري: جامع البيان عن تأويل آي القرآن (تحقيق: عبد الله بن عبد المحسن التركي، بالتعاون مع مركز البحوث والدراسات العربية والإسلامية بدار هجر، مصر– القاهرة: هجر للطباعة والنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، ٢٦ جزءًا، ١٤٢٢ – ٢٠١١)، ١٧: ٢٩٥–٢٩٦.

[25] المصدر السابق، ١٧: ٢٩٧.

[26] الجامع لأحكام القرآن، ١٢: ١٧٠.

[27] المصدر السابق، ١٢: ١٧٠؛ وذكر الرازي تفاصيل معنى "منور". (انظر: التفسير الكبير، ٢٣: ١٩٥).

[28] أبو الفداء الحافظ ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (هوامش وضبط: حسين بن إبراهيم زهران، السعودية- مكة المكرمة: المكتبة التجارية- مصطفى أحمد الباز، ٤ مجلدات، ت. د.)، ٣: ٤٦٤. وقال أبو السعود: " وأمّا حَمْلُ التَّنْوِيرِ عَلى إخْراجِهِ تَعالى لِلْماهِيّاتِ مِنَ العَدَمِ إلى الوُجُودِ إذْ هو الأصْلُ في الإظْهارِ كَما أنَّ الإعْدامَ هو الأصْلُ في الإخْفاءِ، أوْ عَلى تَزْيِينِ السَّمَواتِ بِالنَّيِّرَيْنِ وسائِرِ الكَواكِبِ وما يَفِيضُ عَنْها مِنَ الأنْوارِ أوْ بِالمَلائِكَةِ عَلَيْهِمُ السَّلامُ، وتَزْيِينُ الأرْضِ بِالأنْبِياءِ عَلَيْهِمُ السَّلامُ والعُلَماءُ والمُؤْمِنِينَ، أوْ بِالنَّباتِ والأشْجارِ، أوْ عَلى تَدْبِيرِهِ تَعالى لِأُمُورِها وأُمُورِ ما فِيهِما، فَمِمّا لا يُلائِمُ المَقامَ ولا يُساعِدُ حُسْنَ النِّظامِ". (انظر: أبو السعود العمادي، تفسير أبي السعود: المسمى إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم (لبنان-بيروت: دار إحياء التراث العربي، ٩ أجزاء، الطبعة الرابعة، ١٤١٤ – ١٩٩٤)، ٥: ١٧٥).

[29] بدائع التفسير، ٣: ٢٥٧.

[30] تفسير الطبري، ١٧: ٢٩٧.

[31] التفسير الكبير، ٢٣: ١٩٥، ٢٠٥.

[32] ابن عطية الأندلسي، المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز (تحقيق: عبد السلام عبد الشافي محمد، لبنان- بيروت: دار الكتب العلمية، ٥ مجلدات، الطبعة الأولى، ١٤١٣ – ١٩٩٣)، ٤: ١٨٣.

[33] بدائع التفسير، ٣: ٢٥٤، ٢٥٦-٢٥٧.

[34] الجامع لأحكام القرآن، ١٢: ١٧٠.

[35] برهان الدين البقاعي، نظم الدرر في تناسب الآيات والسور (تحقيق: عبد الرزاق غالب المهدي، لبنان- بيروت: دار الكتب العلمية، الطبعة الثالثة، ٨ مجلدات، ١٤٢٧-٢٠٠٦)، ٥: ٢٦٤.

[36] عبد الرحمن بن ناصر السعدي، تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان (تقديم: الشيخ عبد الله بن عبد العزيز بن عقيل، والشيخ محمد الصالح بن عثيمين، لبنان- بيروت: مؤسسة الرسالة، الطبعة الثالثة، ١٤١٧-١٩٩٧)، ٥٦٨.

[37] التحرير والتنوير، ١٨: ٢٣٣.

[38] تفسير الطبري، ١٧: ٣٠١.

[39] المصدر السابق، ١٧: ٣٠٧.

[40] التفسير الكبير، ١٣: ١٣٩-١٤١.

[41] التحرير والتنوير، ١٨: ١٤٣، ٢٦٨.

[42] بدائع التفسير، ٣: ٢٦٧-٢٧١.

[43] "إنَّ اللَّهَ عزَّ وجلَّ خلقَ خلقَهُ في ظُلمةٍ، فألقى علَيهم من نورِه، فمَن أصابَهُ من ذلِكَ النُّورِ اهتدى، ومن أخطأَهُ ضلَّ، فلذلِكَ أقولُ: جَفَّ القلمُ على عِلمِ اللَّهِ" أخرجه الترمذي، أبواب الإيمان، باب ما جاء في افتراق هذه الأمة، حديث رقم ٢٦٤٢.

[44] بدائع التفسير، ٣: ٢٧١.

[45] رجحه الطبري في تفسيره. (انظر: تفسير الطبري، ١٧: ٣١٥-٣١٨).

[46] حجج القرآن، ١٦٠-١٦٢.

[47] المصدر السابق، ١٦٤-١٦٥.

[48] سورة الأعراف: ١٧٦، سورة الملك: ٢٢.

[49] الأنعام: ١٢٢.

[50] حجج القرآن، ١٥٩-١٦٠.

[51] المصدر السابق، ١٦١.

[52] المصدر السابق، ١٦٢-١٦٣.

[53] ذكر ابن عطية أن الله "خلق العقل نورًا هاديًا؛ لأن ظهور الوجود به حصل، كما حصل بالضوء ظهور المبصرات تبارك الله لا رب سواه". (انظر: المحرر الوجيز، ٤: ١٨٣).

[54] حجج القرآن، ١٧٤-١٧٥.

[55] التحرير والتنوير، ٧: ٤٤١.

[56] المصدر السابق، ١٨: ٢٦٤.

[57] المصدر السابق، ١٨: ٢٤٩.

[58] وهو متناسب مع ما جاء في سورة الأنعام من الأمن لمن لم يلبسوا إيمانهم بظلم (الآية ٨٢).

[59] التحرير والتنوير، ١٨: ٢٧٢.

[60] "أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۗ قَدۡ يَعۡلَمُ مَآ أَنتُمۡ عَلَيۡهِ وَيَوۡمَ يُرۡجَعُونَ إِلَيۡهِ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُواْۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمُۢ " [النور: ٦٤].

[61] النور: ٤١-٤٢.

[62] "وَهُوَ ٱللَّهُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَفِي ٱلۡأَرۡضِ يَعۡلَمُ سِرَّكُمۡ وَجَهۡرَكُمۡ وَيَعۡلَمُ مَا تَكۡسِبُونَ" [الأنعام: ٣].

[63] الأنعام: ٧٣.

[64] "بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُۥ وَلَدٞ وَلَمۡ تَكُن لَّهُۥ صَٰحِبَةٗۖ وَخَلَقَ كُلَّ شَيۡءٖۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ" [الأنعام: ١٠١].

[65] أي "بطونها" (انظر، الجامع لأحكام القرآن، ٧: ٥).

[66] أشجان محمد هندي، "سمة التكرار في آيتي (النور والظلمات)" مجلة الدراسات القرآنية، جامعة ادنبره- اسكتلندا، المجلد ٢١، العدد: ٢ (٢٠١٩)، ١٧٤ -١٧٦.

[67] الأنعام: ١٢-١٨، ١٠١-١٠٦، ١١٤، ١٦٤.

[68] "كانَ النبيُّ ﷺ إذَا قَامَ مِنَ اللَّيْلِ يَتَهَجَّدُ قالَ: اللَّهُمَّ لكَ الحَمْدُ أنْتَ قَيِّمُ السَّمَوَاتِ والأرْضِ ومَن فِيهِنَّ، ولَكَ الحَمْدُ لكَ مُلْكُ السَّمَوَاتِ والأرْضِ ومَن فِيهِنَّ، ولَكَ الحَمْدُ أنْتَ نُورُ السَّمَوَاتِ والأرْضِ ومَن فِيهِنَّ، ولَكَ الحَمْدُ أنْتَ مَلِكُ السَّمَوَاتِ والأرْضِ، ولَكَ الحَمْدُ أنْتَ الحَقُّ ووَعْدُكَ الحَقُّ، ولِقَاؤُكَ حَقٌّ، وقَوْلُكَ حَقٌّ، والجَنَّةُ حَقٌّ، والنَّارُ حَقٌّ، والنَّبِيُّونَ حَقٌّ، ومُحَمَّدٌ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ حَقٌّ، والسَّاعَةُ حَقٌّ، اللَّهُمَّ لكَ أسْلَمْتُ، وبِكَ آمَنْتُ، وعَلَيْكَ تَوَكَّلْتُ، وإلَيْكَ أنَبْتُ، وبِكَ خَاصَمْتُ، وإلَيْكَ حَاكَمْتُ، فَاغْفِرْ لي ما قَدَّمْتُ وما أخَّرْتُ، وما أسْرَرْتُ وما أعْلَنْتُ، أنْتَ المُقَدِّمُ، وأَنْتَ المُؤَخِّرُ، لا إلَهَ إلَّا أنْتَ - أوْ: لا إلَهَ غَيْرُكَ - قالَ سُفْيَانُ: وزَادَ عبدُ الكَرِيمِ أبو أُمَيَّةَ: ولَا حَوْلَ ولَا قُوَّةَ إلَّا باللهِ، قالَ سُفْيَانُ: قالَ سُلَيْمَانُ بنُ أبِي مُسْلِمٍ: سَمِعَهُ مِن طَاوُسٍ، عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عنْهمَا، عَنِ النبيِّ ﷺ". رواه البخاري، كتاب أبواب التهجد، باب التهجد بالليل وقوله عز وجل "ومن الليل فتهجد به نافلة لك"، حديث رقم ١١٢٠.

[69] مثاله: الأنعام: ١١، ٩٥-٩٩، ١٤٨.

[70] الأنعام: ٩٦-٩٧.

[71] التحرير والتنوير، ٨: ٥.

[72] مثاله: الأنعام: ٤-٦، ١٩، ٢١، ٢٥، ٣٧-٣٩، ٥١، ٦٣-٦٧، ٩١-٩٤، ١٠٩-١١٠، ١١٤-١١٨، ١٢٤، ١٣٠، ١٥٥، ١٥٨.

[73] التحرير والتنوير، ١٨: ٢٢٨-٢٢٩.

[74] المصدر السابق، ١٨: ٢٦٧.

[75] تفسير أبي السعود، ٥: ١٧٥.

[76] نظم الدرر، ٥: ٢٦٣-٢٦٤.

[77] التحرير والتنوير، ١٨: ١٤٣.

[78] "ٱنظُرۡ كَيۡفَ نُصَرِّفُ ٱلۡأٓيَٰتِ لَعَلَّهُمۡ يَفۡقَهُونَ" [الأنعام: ٦٥]، "وَكَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ ٱلۡأٓيَٰتِ وَلِيَقُولُواْ دَرَسۡتَ وَلِنُبَيِّنَهُۥ لِقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ" [الأنعام: ١٠٥].

[79] الأنعام: ٧-٨، ٣٥. انظر: التحرير والتنوير، ٧: ٢٤٣.

[80] التفسير الكبير، ١٣: ١٠٩

[81] التحرير والتنوير، ٧: ٤١٨-٤١٩.

[82] تجدر الإشارة إلى أن ذكر الصراط المستقيم مع النور أو الخروج إلى النور قد جاء في سور عديدة، مثل: النساء: ١١٧٤-١٧٥، المائدة: ١٦، الشورى: ٥٢.

[83] نظم الدرر، ٢: ٦٥٧.

[84] خاتمة الأنعام التي تأمر النبي ﷺ بإعلان التوحيد وسيره على الصراط المستقيم تتشابه مع خاتمة الشورى التي تبين أنه على نور من ربه (وهذا النور لا يختلف عن مثل النور في سورة النور): "وَكَذَٰلِكَ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ رُوحٗا مِّنۡ أَمۡرِنَاۚ مَا كُنتَ تَدۡرِي مَا ٱلۡكِتَٰبُ وَلَا ٱلۡإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلۡنَٰهُ نُورٗا نَّهۡدِي بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنۡ عِبَادِنَاۚ وَإِنَّكَ لَتَهۡدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ - صِرَٰطِ ٱللَّهِ ٱلَّذِي لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ أَلَآ إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ ٱلۡأُمُورُ" [الشورى: ٥٢-٥٣].

[85] التفسير الكبير، ٢٣: ١١٤.

[86] يتكرر هذا الختام في آية الاستئذان (الآية ٢٧) التي تبين أحكام الإسلام في الدخول إلى البيوت وأن هذه الأحكام خير يجب تذكرها والعمل بها (انظر: التحرير والتنوير، ١٨: ١٩٨).

[87] النور: ٣٦-٣٧.

[88] التحرير والتنوير، ٧: ٣١٧.

[89] المصدر السابق، ٨: ١٥٢.

[90] الآيات ٧١، ٨٨، ٩٠.

[91] قال ابن عاشور: "إشارَةٌ إلى حُجَّةٍ مُسْتَنْبَطَةٍ مِن دَلالَةِ أحْوالِ المَوْجُوداتِ عَلى وُجُودِ صانِعِها... والمَعْنى نَكْشِفُ لِإبْراهِيمَ دَلائِلَ مَخْلُوقاتِنا أوْ عَظَمَةَ سُلْطانِنا كَشْفًا يُطْلِعُهُ عَلى حَقائِقِها ومَعْرِفَةِ أنْ لا خالِقَ ولا مُتَصَرِّفَ فِيما كَشَفْنا لَهُ سِوانا" (انظر: التحرير والتنوير، ٧: ٣١٥).

[92] تفسير الطبري، ٩: ٣٤٧.

[93] المصدر السابق، ٩: ٣٤٨.

[94] المصدر السابق، ٩: ٣٤٩.

[95] المصدر السابق، ٩: ٣٥١.

[96] المصدر السابق، ٩: ٣٥٣.

[97] محمود بن عمر الزمخشري، الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل (تصحيح: عبد الرزاق المهدي، لبنان–بيروت: دار إحياء التراث العربي، الطبعة الأولى، مجلدان، ١٤٢٤ – ٢٠٠٣)، ١: ٣٣٣.

[98] يأتي لفظ "كوكب" في قصة رؤية إبراهيم للكواكب في الأنعام ويأتي في آية النور لفظ "كوكب" مما يكوّن رابطًا لفظيًا بينهما.

[99] التفسير الكبير، ٢٣: ١٩٥.

[100] تفسير الطبري، ١٧: ٢٩٧، ٢٩٩.

[101] أبو حيان الأندلسي، تفسير البحر المحيط (دراسة وتحقيق: عادل أحمد عبد الموجود وعلي محمد معوض وآخرون، لبنان–بيروت: دار الكتب العلمية، الطبعة الثانية، ٩ مجلدات، ١٤٢٨ – ٢٠٠٨)، ٦: ٤٢١.

[102] قال ابن عاشور: "والموقِنُ هو العالِمُ عِلْمًا لا يَقْبَلُ الشَّكَّ، وهو الإيقانُ. والمرادُ الإيقانُ في مَعْرِفَةِ اللَّهِ تَعالى وصِفاتِهِ" (انظر: التحرير والتنوير، ٧: ٣١٦).

[103] تفسير الطبري، ٩: ٣٥٣.

[104] *Tadabbur-e-Qur'ān* (Vol.5, Surah al-Nur 24), 45.

[105] التحرير والتنوير، ٧: ٢١٨–٢١٩.

[106] المصدر السابق، ٨: ٤٥.

[107] بدائع التفسير، ٣: ٢٥٤.

[108] الجامع لأحكام القرآن، ١٢: ١٧٠.

[109] التحرير والتنوير، ١٨: ٢٣٠.

[110] الآيات التي تذكر النور في سورة الحديد هي: ٩، ١٢– ١٣، ١٩، ٢٨.